سلسلة

آفــاق ثقافيّــة

شارل حلو

من القلب إلى الذاكرة

وقائع الندوة المنعقدة
في جامعة سيّدة اللويزة – زوق مصبح
الإثنين ٢١ كانون الثّاني ٢٠٠٢

جامعة سيّدة اللويزة

لبنان ٢٠٠٢

شارل حلو

من القلب إلى الذاكرة

تحرير : جورج مغامس

منشورات : جامعة سيِّدة اللويزة©

تلفون: ٠٩/٢١٨٩٥٠

فاكس: ٠٩/٢١٨٧٧١

http:/www.ndu.edu.lb

إدارة : مكتب العلاقات العامّة

الطبعة الأولى : شباط ٢٠٠٢

تنفيذ : مطابع معوشي وزكريّا

ISBN: 9953-418-33-0

كان يحلم ويصلّي

في آخر مقابلة صحفيّة نُشِرت، بعد وفاته، سئل الرئيس حلو:

ماذا تفعل هذه الأيّام؟

فأجاب: أحلم... وأصلّي.

بعدها بأيّام، رحل الرئيس حلو عن هذا العالم.

تُرانا قادرين على استحضار، أو على تصوّر تلك الأحلام وتلك الصلوات.

الصلوات كتبها الرئيس حلو، ونشرتها جريدة النهار.

أمّا الأحلام، فلا أدري كيف يمكن أن نقاربها إلاّ بسؤال:

بماذا يحلم رئيس جمهوريّة؟

بماذا يحلم رئيس جمهوريّة سابق؟

بماذا يحلم رجل قارب عمره التسعين عاماً؟

بماذا يحلم انسان معروف، تبوّأ أعلى المراكز، وتجاوزت شهرته حدود الوطن إلى العالم كلّه؟

بماذا يحلم مؤمن باللّه إلى حدّ الاستسلام المضيء بالفرح: لتكن مشيئتك؟

بماذا يحلم مثقّف حرّ، ما ترك القلم لحظة من العمر، ولا الكتاب، ولا الجريدة...

وما تخلّى يوماً عن الكلمة، ولا استبدلها ساعةً بسلاح آخر، وما أكثر الأسلحة؟

تُراهُ كان يحلم مثلنا، ومثل الأطفال، ومثل الطلاّب، ومثل الفلاّحين والعمّال، ومثل كلّ البشر؟

تُراه كان يحلم بوطن آخر، بعالم آخر، بزمن آخر؟ أم تُراه، وهو يحلم، كان يندم؟ أم تراهُ، في الحلم، تصفّى إلى حدّ الرقّة، رغم ضخامة قامته، وما عاد الجسد إلاّ حيّاً بحبّ؟

لست أدري، بماذا كان يحلم الرئيس؟ ويا ليتنا وليتكم تدرون...

ولكنّنا ندري ماذا كان يصلّي...

في "النهار"، وقبل وفاته بأسبوعين، وبمناسبة عيدي الميلاد والفطر، وقد تلاقيا، في الزمن، كما في قلبه، نشر الرئيس هذه الابتهالات.

صلاته، لا هويّة لها؛ ليست مسيحيّة ولا إسلاميّة، ليست لامرأة أو لرجل، ليست لطفل أو لشيخ، ليست لرئيس أو لمرؤوس... إنّها صلاة كلّ هؤلاء، أردّدها معكم:

"يا ربّ

أعطنا، في لبنان، أن نحبّك،

أن نحبّ بعضنا بعضاً،

أن نحبّ لبعضنا الخير والنعمة..

أعطنا أن نبني وطناً، بروح التجدّد والتسامح والعطاء..

أعطنا أن نصون الحريّة والاستقلال والعيش المشترك..

أعطنا أن نقول الحقّ، فلا نكذب؛

وأن نعبّر بصدق عما نُسرّ، فلا نخفي غير ما نعلن، ولا نبوح بما لا يختلج في نفوسنا.

أعطنا أن نعمل معاً، ولو بأساليبَ مختلفةٍ، من أجل الوصول إلى هدف واحد: المجدلله في العلى، وعلى الأرض السلام.

منك، يا ربّ، أطلب أن تكون السنة الجديدة عتبة لقرن جديد يحمل عنوان المحبّة والعدالة والمساواة.

لقد جعلت، يا ربّ، من لبنان مختبراً لهذا التفاعل الانسانيّ بين المسيحيين والمسلمين، بين الميلاديين والفطريين،

فصُنْ هذا التفاعل، وبارك هذا المختبر، واحفظ لبنان".

شكراً، فخامة الرئيس،

صلِّ معنا،

لا يزال لبنان بحاجة إلى بعض الحلم، وإلى الكثير من الصلاة.

مدير عام العلاقات العامّة

في جامعة سيّدة اللويزة

سهيل مطر

برنامج
الحلقة الدراسيّة

الافتتاح

كلمة رئيس جامعة سيّدة اللويزة

الأب بطرس طربيه

كلمة فخامة رئيس الجمهورية اللبنانيّة

العماد إميل لحّود

كلمة العائلة

المحامي جو الخوري حلو

الجلسة الأولى

الموضوع	**شارل حلو المثقّف**
رئيس الجلسة	**الوزير جورج افرام**
المتكلّمون	
الوزير ميشال إدّه	الكاتب
السيّدة رباب الصدر شرف الدين	رجل الانفتاح والاعتدال

الجلسة الثّانية

الموضوع	شارل حلو السياسيّ
الرئيس	الرئيس السيّد حسين الحسيني
المتكلّمون	
الأستاذ غسّان تويني	رجل الحريّات
د. الكسندر نجّار	الفرنكفونيّ بامتياز
الأستاذ منح الصلح	المفكّر

الجلسة الثّالثة

الموضوع	**شهادات: ماذا تبقّى من الرئيس شارل حلو؟**
الرئيس	**الوزير النقيب عصام الخوري**
المتكلّمون	
المطران بشارة الراعي	الروحانيّ
السيّدة بهيّة الحريري	المجتمعيّ
الآنسة رانية بارود	الانسان
النقيب ميشال اليان	المحامي
الأستاذ جورج غانم	الاعلاميّ

الافتتـــاح

كلمة رئيس جامعة سيّدة اللويزة

الأب بطرس طربيه

كلمة فخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة

العماد إميل لحّود

كلمة العائلة

المحامي جو الخوري حلو



NDU
جامعة سيدة اللويزة
تحيي بتقدير ومحبة
الذكرى السنوية الاولى لغياب
فخامة الرئيس شارل حلو

كلمة رئيس جامعة سيّدة اللويزة

الأب بطرس طربيه

للذكرى والوفاء والاستعبار

على اسم الرئيس شارل حلو، وفي الذكرى الأولى لغيابه، نلتقي في هذه الجامعة، لا لحفل رثاء، ولا تعبيراً عن الحزن، ولا لتأبين رجل أصبح من التاريخ.

نلتقي للذكرى، وللوفاء، وللاستعبار.

- **نلتقي للذكرى**، على حدّ ما جاء في عنوان هذه الحلقة الدراسيّة: من القلب إلى الذاكرة. فشارل حلو، لم يعد رجلاً فرداً، أو ابن سلالة وعائلة، أو عضواً في نقابة أو تجمّع أو رابطة. إنّه رئيس على حجم وطن؛ ومن الطبيعيّ أن يلتقي الوطن كلّه على إكباره، وعلى جعل موعد رحيله جزءاً من ذاكرة تاريخيّة، لوطن يحيا بمثل هؤلاء الذين يرحلون.
- **نلتقي للوفاء**. فمن الواجب علينا، لا على جامعة سيّدة اللويزة فقط، أن نكون أوفياء لكبار في التاريخ عملوا من أجل هذا الوطن، بروح التضحية والعطاء والحضارة. أين نجح الرئيس حلو وأين أخطأ؟ أسئلة تُترك لأهل البحث والتحليل. ولكنْ، الكلّ يعترفون أنّ هذا

الرجل، بثقافته، بحكمته، بأخلاقه، عمل، بجديّة ومثابرة، من أجل شعبه ووطنه. ولهذا، فالكلّ، في ساعات الصفاء والضمير، يَقْدِرون شخصيّته ومزاياه، ويؤكّدون على الوفاء له، إنساناً ورئيساً.

– ونلتقي للاستعبار من حياة هذا الرجل، من شخصيّته، من سلوكه وممارساته، من مواقفه الوطنيّة والانسانيّة، من نزعته الحضاريّة العالميّة، أمثولاتٌ متعدّدة يمكن استنتاجُها والاستفادةُ منها.

ونحن، اليوم، في الظروف التي نعيش، على صعيد الوطن والمنطقة والعالم، نتطلّع إلى الرئيس حلو، لعلّنا، من خلال نورانيّته واتّساع أفقه، نستمدّ بعض العبر لمعالجة مشاكلنا الوطنيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

وربّما، وبصفتي راهباً ورجلَ دين، أتطلّع إلى الرئيس حلو في عليائه، أو أناديه للصلاة معنا، لعلّنا نتجاوز هذه المرحلة الصعبة، بما يعود بالخير على لبنان وعلى الانسانيّة جمعاء.

أيّها السادة

أشكركم جميعاً. أحيّي الذين نظّموا هذه الحلقة الدراسيّة. وآمل أن نكون، في الذكرى الثانية لرحيل الرئيس حلو، أكثر اطمئناناً وسلاماً. وأهلاً بكم والسلام عليكم.

كلمة ممثّل رئيس الجمهوريّة العماد إميل لحّود

الوزير جورج افرام

أين هو فينا اليوم؟

أيّها السيّدات والسادة،

أحمل إليكم تحيّة فخامة رئيس الجمهوريّة العماد إميل لحّود، الذي شرّفني بتمثيله في إحياء ذكرى الرئيس شارل حلو، شاكراً جامعة سيّدة اللويزة على إقامة هذه الحلقة، يشارك فيها لبنان بتنوُّعه المعطاء الذي أحبّه الراحل الكبير وبذل الكثير في سبيله.

إنّها ذكرى رجلٍ مُتعدِّد المواهب، غنيِّ الروح، رهيفِ الحسّ، واسعِ الثقافة، عميقِ الارتباط بقضايا الإنسان، وشديدِ الإيمان بلبنان الوطن والرسالة.

شهد لذلك كلّه في الصحافة، والمحاماة، والسياسة، والدبلوماسيّة، والوزارة، والاجتماع، وفي إعلاء الدعوة إلى الحوار بين الأفكار والعقائد والأديان من المنابر المحليّة والعربيّة والدوليّة، وصولاً إلى سدّة الرئاسة الأولى في خضمّ أحداثٍ وتقلُّباتٍ أصاب لبنان والمنطقة العربيّة الكثيرُ من شظاياها الجارحة، ولا تزال تفاعلاتُها الحادّة مستمرّةً حتّى اليوم.

خاض شارل حلو غمار العمل الوطنيّ باكراً، مع الرعيل الاستقلاليّ الذي قاد لبنان نحو التحرُّر من إرادة الخارج، وإعلان دولته الحرّة الديمقراطيّة، وتأكيد تميُّزه في إطار الوحدة والعيش المشترك.

وحظي بفرصةِ المشاركة في التفاعل الفكريّ الذي لمعت به منتديات لبنان آنذاك، على يد كبارٍ من رجالاته في ميادين الثقافة المختلفة. فما تخلّف قلمه الساحر عن المواكبة والتأثير، ولا غاب صوته عن البيان والتبيين في المهرجانات والندوات والمحاضرات، بحيث غدا مرجعاً في الرأي، لا تستوي صورة الموقف الثقافيّ في لبنان من دونه.

ويوم دعاه الواجب لتمثيل لبنان في الخارج، أعطى رؤيته للوطن مداها الرحيب: أرضاً للتسامح والحوار بين المسيحيّة والاسلام، بما هو التعبير الحيّ لقيم السماء وتعاليمها.

أيّها السيّدات والسّادة،

لقد كانت رئاسة الدولة حِمْلاً ثقيلاً، مُرهِقاً، مؤلماً لرجلٍ من طينة شارل حلو.

وبدا لبنان، في عهده، الساحة الجاري إعدادُها قهراً لمسلسلٍ من المؤامرات، ضحيّتُها شعوبُ المنطقة بأسرها، ومن خلالها السلامُ القائم على العدل.

وحُمِّل الرئيس تبعاتٍ كثيرةً، فيما كانت التجاذباتُ والتحوُّلات والضغوط الإقليميّة بعد حرب ١٩٦٧، وتصارعُ الجبّارَين على مواقع القوّة والنفوذ في الشرق الأوسط تفوق قدرات لبنان على الاحتمال،

وهو البلد الذي كان لا يزال طريّ العود، وإنْ أثبت أبناؤه كفايةً فريدة وجدارةً رائعة في ميادينَ شتّى.

إنّ معاناة الرئاسة صاحبت شارل حلو في قصر بعبدا، وانتقلت معه إلى قصر الكسليك في ما بعد، لتطبع ما بقي من عمره المديد بطابعها، لا سيّما أنّ آلام لبنان ظلّت تواكب عمليّة السلام في المنطقة حتّى رحيله، ولا تزال.

لكنّ العمق الروحيّ الذي تحلّى به، سمح له بتحويل المعاناة عطاءاتٍ من حوله. فكانت لنا تلك الالتفاتةُ النبيلة التي رعاها في "مطاعم المحبّة"، ومقالاتُه المتعمِّقة في اللحظات الوطنيّة الدقيقة والمناسبات الدينيّة والإنسانيّة الجامعة، وحواراتُه الشيِّقة التي يستذكرها جلساؤه، وبضعُ مؤلّفاتٍ قد تكون أطيب هديّة تركها للبنان.

أيّها السيّدات والسادة،

أين شارل حلو فينا اليوم؟ هو السؤال الذي تختصر الإجابةُ عليه قيمةَ الإنسان الذي نتذكّر!

للرئيس حلو هذا القول، في أواخر الأربعينات:

"إنّ علّة وجود لبنان، بل ضمانةُ وجوده، هي في قيامه برسالة روحيّة وإنسانية تجعله ضروريّاً للعالم أجمع. وإذا عزّزنا هذه الرسالة، نكون قد خدمنا أنفسنا خدمة جلّى، وساهمنا في تطوّر البشريّة جمعاء وتقدّمها نحو بلوغ أهدافها الأدبيّة والسياسيّة، أي نحو بلوغ مستوىً من التعايش والسلم المبنيَّين على التفاهم والعدل والأخوّة".

أجل، إنّه لبنان الرسالة، ما رسّخه تراثنا الوطنيّ الواحد، وعزّزه المناضلون في ساحات السياسة، وأهل الإبداع في الفكر والآداب والفنون عندنا، فوجدناه عصيّاً على محاولات الهدم خلال أعوام المحنة. وهو الذي شكّل مبرِّر الدعوات الداخليّة والخارجيّة الآتية من كلّ صوب إلى وجوب صيانة الوحدة بالتضامن وتوفير مقوّمات الاستقرار، لإعطاء الرسالة أبعادَها الحضاريّة.

المحامي جوزف الخوري الحلو

السيّرة السّمحاء والتّركة الضّخمة

لا بدّ، أوّلاً، من توجيه بالغ الشكر والتقدير لجامعة سيّدة اللويزة، وهي في الطليعة في حقل العلم والثقافة الجامعيّة، وتأهيل شبابنا علميّاً وأخلاقيّاً لمواجهة متطلّبات الحياة، وقد أخذت المبادرة لتنظيم هذه الذكرى الكريمة. ونحن أدرى الناس كم كان فقيدنا الكبير يجلّ هذه الجامعة والآباء المحترمين الذين يتولّون أمرها.

كما نخصّ بشكرنا وتقديرنا فخامة رئيس الجمهوريّة، الذي قبل رعاية هذه الذكرى، وسائرَ المشتركين والحاضرين الكبار.

لقد غاب الرئيس شارل حلو، ولكنّ آثاره باقية حقّاً.

لقد ترك لنا ثروة. إنّ هذه الثروة ليست، بطبيعة الحال، ماديّة، إذ كما قال لي فخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة في إحدى المناسبات: "مات شارل حلو من دون أن يكون له بيت" إنّما الثروة العظيمة التي تركها، فهي في التركة الثقافيّة والفكريّة والأدبيّة والأخلاقيّة الثمينة، والتي يعود لنا جميعاً الحفاظ عليها.

لقد نشأ شارل حلو في عاطفة والدته، والجميع يعرف العلاقة المميّزة التي كانت تربطه بالوالدة، مع ما انعكس عن هذه العلاقة، لدى شارل

حلو، من تعلّق بالمحبّة الحقيقيّة والنبيلة والحنين واحترام الآخرين؛ ومن ثَمّ في مربع جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيين، حيث تلقّى ليس فقط علومَه الابتدائيّة والجامعيّة، بل أيضاً روح ومبادئ الانضباط والتحليل والتفكير، انطلاقاً من المنهجيّة اللاتينيّة، والمنهج الفكريّ والأدبيّ المعروف لدى الآباء اليسوعيين والمؤثّر في تربية الأجيال. لقد حلّق شارل حلو في دراساته، وأصبح المميّز لدى الآباء اليسوعيين.

من هذه الانطلاقة، أكمل شارل حلو مسيرته، وحاول تطبيق، في كلّ مرحلة من مراحل حياته، ما تعلّمه واستوحاه: أي الدمج بين الإيمان المسيحيّ والثقافة العالية ونبل الأخلاق من جهة، واعتماد، في حياته العامّة، منطلقات الديمقراطيّة ومبادئ النظام الجمهوريّ المقدّس للحريّات من جهة أخرى. واستوحى، على الدوام، من مثله الأعلى في التفكير: المعلّم ميشال شيحا.

هكذا لعب دوره في الشأن العام: في الدبلوماسيّة والصحافة والنيابة والوزارة ورئاسة الجمهوريّة؛ وكان هاجسه الوحيد رفع لبنان إلى المرتبة الأعلى كبلد للتعايش والانفتاح والحريّة واحترام حقوق الانسان، والديمقراطيّة، ليبقى نموذجاً حقّاً في هذه المنطقة من العالم.

وعندما اضطر، وهو في سدّة الحكم، لمواجهة أصعب أزمة مرّ بها لبنان، وهي أزمة وُلدت بعد التغييرات التي عرفتها أنظمة الدول العربيّة

منذ الاستقلال سنة ١٩٤٣، وخصوصاً بعد وبنتيجة هزيمة ٦٧، ورفضت الأكثريّة مماشاته في "سياسة عدم القبول بالأمر الواقع وسياسة الأمر الواقع"، بل تفضيل الثورة على كلّ اعتبارات رئيس الجمهوريّة المتمسّك بحريّة وسيادة الوطن، يومَها حاول – شبه معزولٍ – إبعاد الأخطار قدر الإمكان، وتسليم الحكم لخلفه وفقاً للقواعد التي ترعى مبادئ الجمهوريّة.

تجربته المريرة في الحكم زادته تعلّقاً بالإيمان، إذ أسهمت في تعريفه أكثر إلى الناس، بأنانيّتهم وطموحاتهم الدنيويّة، وبُعدهم عن المصلحة العامّة، تجاه مصالحهم الخاصّة ومطامعهم الآنيّة. وقد انزوى، في النهاية، أكثر فأكثر في عزلة الإيمان لأجل أن يتفهّم أكثر ويسامح أكثر؛ ودوماً كان يشرح لنا فلسفته حول طبيعة الانسان.

تجاه الانتقادات غير المحقّة، كان يدهشنا بعدم الإجابة على المتجنّين، ورفض اتّهام أحد، لأنّ إيمانه المسيحيّ كان فوق كلّ الصغائر، مردّداً دوماً عبارات أحد مرشديه الروحيين الأب جبرائيل مالك "حبّ الآخر الحقيقيّ هو التوصّل إلى مرحلة حبّ العدوّ المباشر".

(L'amour du prochain c'est parvenir à aimer son propre ennemi)

كما أنّ ردّات فعله كانت مستوحاة من نصائح صديق آخر مقرّب إليه، وهو من عظماء لبنان، سماحة الإمام موسى الصدر، الذي كان ينصح على الدوام بإبراز المنجزات الكبيرة، من دون الالتفات إلى صغائر هواة الافتراء والتجنّي.

وهنا نفتح هلالين لسرد واقعة: ففي نهاية عهد الرئيس الحلو، أتى أحدهم ليصرّح عن فضيحة مزعومة، مفادها أنّ الدولة، في عهدته، أنفقت أموالاً طائلة لتركيب الكابل البحريّ. وزعمت هذه الشخصيّة أنّ الأمر وهميّ، ولا يوجد أيّ كابل بحريّ منجز. كان يصعب وقتها التحقّق حسيّاً من وجود أو عدم وجود هذا الكابل. ومرّت الأيّام، وكان هذا الكابل الصلة الوحيدة بين لبنان والعالم خلال عشرات السنوات. وعندما سألت الرئيس حلو كيف يمكن التجنّي بهذه الصورة الرخيصة، وضرورة الرّد؟ أجابني: الأيّام تظهر الحقيقة. ولربّما يصبح هذا الشخص من نافذي البلد... لأنّه سوف يتقلّب مع تغيّرات الريح. وهكذا صار.

وهكذا، وبعد الابتعاد عن أعماله السياسيّة اليوميّة (لم يعد يشكّل خطورة على أحد، كمنافس على المناصب)، أتاه الجميع، حتّى من كان يتجنّى منهم عليه، للتعبير عن التقدير والاحترام والاستماع إلى التحاليل والنصح.

كانت له بالفعل، نعمة الرؤيا الثاقبة، بحيث لم يعرف لبنان حدثاً أو أزمة أو عاصفة إلاّ وكان أعلنها قبل حدوثها بزمن. فمن أقواله: إنّ الشرق الأوسط لن يعرف السلام، لأنّ أرض الأزمة مقدّسة لدى كلّ فئة عليها، ولأنّ الطابع الدنيويّ الزمنيّ للديانتين الإسلاميّة واليهوديّة يحوّل الأزمة إلى حرب "أنبياء". ألم تكن رؤيته صائبة، على ما نشهد اليوم!

وكم كان حزيناً، خلال الحرب اللبنانيّة، عندما اندمجت خلافاتنا الداخليّة بمطامع الآخرين على أرضنا، بحيث أصبحت دول المنطقة وسواها، تتقاتل هنا، مستبيحةً كلّ القيم الانسانيّة، فاستعمل سلاحه الوحيد: الكتابة، ليشكو ويدافع ويشرح... ورفض استقبال أو زيارة أحد من المنغمسين في قتلنا وتدميرنا، وباتت مداخلاته محصورة بالشرفاء الحياديين كفرنسا والفاتيكان.

وها هو يشارك في إنشاء ونشر الفرنكوفونيّة العالميّة، لأجل إبراز، بشكل خاصّ، الوجه الحضاريّ للبنان.

إلى جانب جهوده المستقتلة للدفاع عن لبنان، كان ينصرف إلى الأعمال الانسانيّة والاجتماعيّة، وأصبحت مطاعم المحبّة من هواجسه.

وفي النهاية، إنّ الملفت عنده هو هذا الشعور المتسامح، الذي كان يبلغ حدّ التجرّد والإشاحة حتّى الإيمان العميق بالسماح المطلق. وعليه، لم يعد غريباً أن تكون تأمّلاته وصلواته مع أقرب أصدقائه – رجال الإيمان – منهجاً لحياته.

كان لنا مدرسةً في الوطنيّة والعلم والأخلاق والإيمان. ونحمد اللّه أنّ المنهج المتّبع، منذ أوّل حياته حتّى يوم وفاته، هو موضوع كتابات عدّة، ورسائل، ومؤلّفات، وصور وأفلام، ناهيك عن الشروحات والتصريحات والأحاديث الشفهيّة العديدة، والتي كان لي شرف الاستماع إلى الكثير منها.

إنّ هذه التركة الفكريّة والأدبيّة ضخمة.

ونحن، أفراد عائلة الفقيد الكبير، وبصفتنا خلفائه الخاصّين، نقطع، من هنا، عهداً بالحفاظ على هذا الكنز الثمين، ونؤكّد أنّنا سنقوم بتأسيس "مؤسّسة شارل حلو"، التي سيُعلن عنها في الأيّام المقبلة، والتي ستضمّ كبار الشخصيّات الذين أحبّهم شارل حلو، والذين أحبّوه، لتتولّى معنا الحفاظ على هذا التراث، وتعريفه ونشره، بالوسائل النبيلة المتاحة. ونضع بالأخصّ في تصرّف المسؤولين، وعلى رأسهم فخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة، الذين، مثل الرئيس حلو، يتمسّكون بمبادئ الحرّية والديمقراطيّة، كلّ ما لدينا من مستندات حول الفرنكوفونيّة، تمهيداً للمؤتمر الذي سيُعقد في لبنان. طبعاً إذا ما شاؤوا.

هذا، وإنّ العائلة ستنظّم، بالتعاون مع إدارة مدرسة سيّدة الجمهور، قاعة شارل حلو التي هي قيد الإنشاء، حيث ستُعرض مكتبته الخاصّة، هبةً منه، في وقت وجيز قبل رحيله؛ واتّفقنا على إيداعها أيضاً أغراضاً شخصيّة ذات رمز خاصّ.

نكرّر شكرنا لتنظيم هذه الذكرى.

ونكرّر عهدنا بالاستمرار في المسيرة، إحياءً لذكراه، وخدمةً لوطننا الحبيب: لبنان.

الجلسة الأولى

الموضوع	**شارل حلو المثقَّف**
رئيس الجلسة	**الوزير جورج افرام**
المتكلّمون	
الوزير ميشال إدّه	الكاتب
السيّدة رباب الصدر شرف الدين	رجل الانفتاح والاعتدال


NDU جامعة سيدة اللويزة
تحيي، بتقدير ومحبة،
الذكرى السنوية الأولى لغياب
فخامة الرئيس شارل حلو
٢١-١-٢٠٠٢

شارل حلو كاتباً

في البدء وهو طفل بعد، ورث شارل حلو افتتانه بسلطة الكلمات عن والده الصيدليّ المتعاطي بكيمياء الأدوية، على ما كتب في "مذكّراته". وكان ذلك بالفرنسيّة.

أمّا عن احتكاكه الأوّل بسحر الكتابة، فمع الاندهاش الذي استثاره في الطفل ورق الطباعة les papiers d'impression. وكان ذلك بالفرنسيّة أيضاً.

هل لنا أن نجد في هذه النشأة البذور الكافية، المكتفية بذاتها، لتفتّح ذلك النضج اللاحق لدى شارل حلو الكاتب الذي لم يكتب إلاّ باللغة الفرنسيّة؟ الكاتب في الصحافة، والكاتب في السياسة، والكاتب في الفكر، وفي المسرح، وفي الحبّ والملامس، في غير قليل من الأحيان، تخوم الشعر؟

هل لنا أن نجد في هذه العناصر الأولى الجواب الشافي على السؤال عن سرّ ارتقاء الكتابة من مجرّد حرفة وتكنيك إلى علّة وجود، كما صارت وألحّت على هذا المثقّف، المحامي، الصحافيّ، النائب، الوزير، الرئيس؟

عندما كانت قرقعة آخر ترامواي تغادر الليل نزولاً على طريق الشام، متغلّبة أحياناً قليلة على صوت الوالد الذي عوّد صغيريه على السهر معه يروي لهما شعر شكري غانم في "عنترة"، كانت "أحلام طفولتنا قد وضعت على السكّة – على حدّ تعبير شارل حلو – (...) ومنذ إذاك بات الكلمة le verbe بلسمي وعزائي".

لم يعد البلسم، إذن، من كيمياء الأدوية، بل من جبلّة أخرى: كيمياء الأحلام التي لا يغذّيها شيء آخر، في ذلك العمر، مثل الحكاية.

وفي مثال شارل حلو، عليك أن تضيف إليها سحر الكلمة le verbe، صوته، إيقاعه بخاصّة. وعلى هذا، لم تتشكّل فقط تلك الذاكرة الحادّة، بل الاستثنائيّة التي عرف بها شارل حلو. إنّما راحت تتكوّن معها الأحلام التي سوف يرويها لنا الكاتب فيما بعد، باعتبارها من مدوّنات مذكّراته. فالكتابة التي أبدعها رئيسنا الراحل اتّخذت، في قلمه، وفي عمر النضج، طابع الأحلام المبدعة أكثر ممّا بدت تعليقات، أو وقائع حدثان، أو ذكريات مرويّة. لكأنّ كتابة شارل حلو فعل تناضح وارتشاح osmose ما بين الذكريات والأحلام التي لم تعد من خصوصيّاته وحسب. ففيها قلقنا نحن أيضاً. وفيها أملنا والرجاء.

ومع ذلك، ثمّة سرّ آخر لم ينجل بعد، وفّر ذلك التواصل والاستمراريّة بين أعمار الطفولة فالرشد والنضج التي درجنا نحن جميعاً على التفريق بينها أو قسمتها. إذ إنّنا "قسمنا الزمن كي نستطيع تحمّله"، كما حلا لشارل حلو أن يكتب ذات مرّة. واسمحوا لي هنا أن أضيف بأنّنا

إنّما فعلنا ذلك كي نتمكّن من تحمّل تراجيديا الزمن التي لا حلبة أخرى لها غير الحاضر اليوميّ المتنازع عليه أبداً في ذات اللحظة من قبل اثنين: الماضي بالركون إليه والتسليم بمسلّماته، والمستقبل بالقلق عليه فيما هو يتكوّن جنيناً.

هذا السرّ الذي أنجز في تجربة شارل حلو اعتبار الكتابة علّة وجود، أزعم أنّه كامن في البعد الروحيّ الذي شكّل جوهر هذه الكتابة.

وأحسب أنّني قد أكون على شيء من إنصاف لذكرى راحلنا الكبير إذا ما توفّقت إلى مرافقتكم في نزهة خاطفة تتنقّل بنا من حدائق الذكريات والأحلام التي خلّفها إلى حدائق الإيمان التي ما انفكّت يانعة بسقاية روحه وكلماته.

"في ما يتعدّى الجاذبيّة" "Au delà de la pesanteur"، عنوان مقال كتبه شارل حلو في ١٦ نيسان ١٩٦١، ويتساءل فيه عن الكنه الأبعد لذلك الانتصار الذي حقّقه يومها أوّل رائد للفضاء، يوري غاغارين. ومن هذا المقال أقتطع العبارات الآتية:

"... Et même ce "ciel noir" qu'il a vu, cette "terre bleue", s'opposent et se substituent à nos propres images, comme pour achever de nous persuader que toute image doit s'éteindre en nous, pour nous accéder enfin à la vérité".

"... حتّى تلك "السماء السوداء" التي رآها، وهذه "الأرض الزرقاء"، يعارضان صورنا، ويستبدلانها ويحلاّن محلّها – كما لو أنّ ذلك من أجل إقناعنا نهائيّاً بأنّه يتعيّن على كلّ صورة أن تنطفئ فينا، لكي يصبح من الميسور علينا أن نبلغ الحقيقة أخيرا".

ولكن، ما هي هذه الحقيقة، التي يدعو شارل حلو إلى ضرورة بلوغها؟

إنّها عمليّة الانعتاق من عالم أحاسيسنا والمسلّمات التي نركن إليها. إنّها التحرّر من رؤيتنا المشوّهة للعالم الذي تعوّدنا على اختزاله في عالم الظواهر وحسب، والذي تعوّدنا على صوغ القوانين وفقه وحسب.

خلف الظاهر، هناك الروحيّ الذي يشكّل حقيقة الزمنيّ، والمدعوّون نحن إلى اكتشافها. وبهذا المعنى، فالكتابة مع شارل حلو، تغدو فعل تقاطع بين الروحانيّ والزمنيّ. وهي مسار من السعي لإدراك تلك الحقيقة. فشارل حلو مفعم الإيمان بكون الروح متغلغلاً حاضراً في كلّ إبداع وخلق. ويمكن بلوغه في كلّ مكان. شارل حلو لا يسعه أن ينسى مرّة أنّه في "البدء كان الكلمة" verbe، "قل الروح التي من أمر ربّي".

لكنّ التعرّف إليه يقتضي منّا أن نتجاوز، في كلّ لحظة، رؤيتنا المشوّهة للعالم، ولا سيّما الرؤية إليه من منظار الأفكار المسبقة، التي، باستكانتها وكسلها، تحوّل الأفكار إلى دوغمائيّات قتّالة.

"La vérité demande qu'on l'aborde en dehors du préjugé, avec une curiosité, une gravité et une profondeur d'enfant".

"فالحقيقة تطالب بأن نباشرها من خارج الأفكار المسبقة، بل بفضول الطفل، وجدّيّته الصارمة، وعمقه". هذا ما يذهب إليه شارل حلو حرفيّاً. إذ إنّ اكتشاف الحقيقة فعل إبداع بامتياز، ينطوي حكماً على مَلَكَتَيْ دهشة الطفولة وبراءتها في آن، ويحتفظ بفعلهما الناضج.

بالعودة إلى قانون الجاذبيّة، فما هي صلة هذه الجاذبيّة بتلك الحقيقة التي يرى إليها حلو علّة وجود الكتابة، وعلّة شغف الكاتب بالكتابة؟

هل هي القدرة المتبصّرة لوجود قانون اختراق قانون الجاذبيّة كامناً، ينتظر من يكشفه ويفرج عنه؟

"Ceux de ma génération n'ambitionnent pas sans doute de visiter d'autres planètes. Mais ils partagent l'allégresse générale du départ possible, et surtout ils participent à cet élan fondamental qui ne cessera pas de porter l'être humain à rechercher d'étape en étape, dans les espaces, l'au-delà de l'espace et l'au-delà du temps".

يقول شارل حلو في مقال الجاذبيّة نفسه:

"من هم من جيلي لا يصل بهم الطموح بالطبع إلى حدّ القيام بزيارة كواكب أخرى. لكنّهم يتقاسمون الحبور العام بحلول الإقلاع الممكن، ويشاركون بخاصّة في هذه الاندفاعة الأساسيّة التي لا تكفّ عن حمل الكائن الإنسانيّ على البحث من مرحلة إلى مرحلة في الفضاءات المترامية، عمّا يتعدّى الفضاء وعمّا يتعدّى الزمن".

لكنّ شارل حلو يسارع إلى التنبيه بأن تُفْهَمَ حقيقته تلك دونما أدنى لُبس. فيردّ على ما اعتبر في صحيفة أجنبيّة أنّ من شأن انتصار غاغارين التأكيد على "أنّ العلم يحرّرنا من الفكر الدينيّ المسبق"،

"La science nous affranchit du préjugé religieux"

قائلاً بالعبارة المفعمة إيماناً وأناقة:

"...Nous croyons au contraire que ce que l'homme, plus ou moins confusément, scrute dans un ciel d'algèbre, c'est le ciel de la foi".

"نحن نعتقد، على العكس من ذلك، بأنّ ما ينقّب عنه الإنسان في سماء الجبر، بهذا الحدّ أو ذاك من التشوّش، إنّما هي سماء الإيمان".

وفي نهار الأحد اللاحق، أي في ٢٣ نيسان ١٩٦١، استرسل شارل حلو في تقديم رؤيته الإيمانيّة هذه التي أخذت عليه مجامع قلبه. فاقترح على قرّاء "اللوجور" أن يُنعموا التأمّل بفكرة أخّاذة لغراهام غرين Graham Greene من شأنها، كما قال، "أن تستثير في الآن معاً حماس "الزاحفين" الحاليين "rampants actuels" الذين هم نحن، وروّاد الفضاء في المستقبل:

"ليس عالمنا كلّ الكون. بل ربّما كان هناك مكان حيث لم يمت فيه المسيح".

"Qui pourrait exalter à la fois les actuels "rampants" que nous sommes et les astronautes de l'avenir: notre monde n'est pas tout l'univers. Peut-être y a-t-il un endroit où le Christ n'est pas mort...".

ذلك أنّ الإنسان المندفع في غزو السماء، مقدّماً الشهادة الأبهى على عظمته، لم يخلع بعد ثوب البؤس الذي يلفّه. وهذا ما يقلق، ويلهم، شارل حلو. فلا تفارق المسيحيّة كتابته، بل تضيئها أبداً وسط ظلمات الحاضر وتعاساته. فتراه ينهي مقالته في ٧ أيّار ١٩٦١ عن إنجاز Alan Shepard رائد الفضاء الأميركيّ بعد غاغارين، بالقول:

"Nous attendons, avec une curiosité passionnée, de savoir ce qui se passe sur Mars ou sur Vénus. Mais quand, de l'une ce ces planètes, nos successeurs se mettront à observer la nôtre - quand ils adopteront le point de vue de Sirius - ils essaieront avec attendrissement, avec pitié, de comprendre ce que pouvaient bien signifier nos différences nationales, nos préjugés raciaux et tout ce qu'il nous fallait surmonter d'obstacles pour retrouver l'unité de notre vocation et de notre salut".

"إنّنا ننتظر، بفضول جارف، أن نعرف ما يجري على المرّيخ أو الزهرة. ولكن، عندما يأخذ خلفاؤنا من على هذين الكوكبين بملاحظة كوكبنا الأرض، فإنّهم سوف يحاولون، بالعطف والرأفة، أن يفهموا ما كان يمكن أن تعنيه فوارقنا الوطنيّة، وأفكارنا المسبقة العرقيّة، وكلّ ما كان يتعيّن علينا أن نتجاوزه من عقبات كي نعثر مجدّداً على وحدة دعوتنا vocation وخلاصنا".

هل هذه كتابة أم اختلاجات روح، بإزاء الأشكال المتعدّدة من القهر والفقر والظلمات التي ما تزال تطبع مسيرة التاريخ البشريّ على جغرافية هذه الأرض، بعد ألفين من عام المسيح؟

وهل كان شارل حلو مضطراً للكتابة من على متن الفضاء، عن التعاسة التي نتخبّط فيها وهي مكتظّة من حولنا، أينما تلفّتنا، لا تترك الواحد منّا على قيد الحياة إلاّ مجروحاً مدمّى؟

ما الذي جعل شارل حلو مصرّاً على اعتبار الكتابة وممارستها سيراً متجدّداً باتجاه المطلق، كلمة جديدة أبداً، عبارة يصنع رونقها وحيويّتها وأناقتها استعادة ضمنيّة، حتّى من أعالي السماوات، للاستغاثة التي ما انفكّ الفضاء يرجّع صداها مع نداء المصلوب منذ عشرين قرناً: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟".

لولا هذه الشعلة، هذا البهاء من النور الروحانيّ، لما التمعت في كتابة شارل حلو هذه النزعة الإنسانيّة المنخرطة في قلب العصر، وفي خضمّ العمل، من أجل أن يكون توقّف الكاتب، حتّى عند الحدث اليوميّ، لا فعل تأريخ للّحظة وحسب، بل سيرٌ بوعي الإنسان في إزاء هذا الحدث أو ذاك، صوب الكونيّ والمطلق.

كتب يقول في مكان آخر:

"A une certaine altitude, tous les modes d'expression du spirituel se rejoignent. Tous les chants se confondent et toutes les amours".

"عند علوّ معيّن، تتلاقى كلّ أنماط التعبير عن الروحيّ. كلّ الأناشيد تتدامج وتختلط، وكلّ صيغ الحبّ كذلك".

الكتابة، بقلم شارل حلو، هي هذا العلوّ الذي يكشف الكون من على ذراه عن أنّه – في يقينه النهائيّ – من طبيعة روحيّة. فتنكشط وتتهافت تالياً تلك التراكمات من الاعتبارات والأفكار التي طالما افتعلت خصاماً تناحريّاً بين الفيزياء والميتافيزياء، وجعلت الواحدة منهما تناصب الأخرى عداءً مستفحلاً.

هكذا تنجلي الكتابة عند شارل حلو، وفي كلّ المواضيع وعلى كلّ الحلبات، عن موهبة متميّزة التقطت فعل الكتابة فرصة للتأمّل فيما يتعدّى المظاهر إلى الحقيقة الأعمق.

في هذا السبيل، لم يأل شارل حلو جهداً إلاّ وبذله، ولا جنساً من أجناس الكتابة إلاّ وجرّبه، ابتغاءَ إضفاء المزيد من الحيويّة على تقديم فكرته الجوهريّة تلك، ومدّها بالمزيد من القدرة على إقناع الغير بصوابيّتها وجدواها الإنسانيّ.

فلا يعود مباغتاً، ولا مستغرباً، أن نجده يعتلي خشبة المسرح، فيكتب نصّين مسرحيّين ("الحقيقة في فوهة البندقيّة" **"La vérité au bout du fusil"** و"حيث يبدأ الحب" **"Où l'amour commence"**) دون أن يكون هاجسه تقديم مسرح كامل الأوصاف. بل كان مهموماً بأن تنفتح الستارة على

مشهد مساءلة نقديّة لليقينيّات والمعارف السطحيّة، و"للحقائق" الظاهريّة الزمنيّة العابرة المتناقضة. مشهد تهافتها بكلمة.

وهنا، تتجلّى كتابة شارل حلو المسرحيّة بمثابة اقتراح أو إغراء للمشاهدين للقيام برحلة أخرى للتنقيب عن المسرح الحقيقيّ حيث تبرز الحقيقة التي لا تقبل تلاعباً، ولا تزييناً، ولا زخرفة. الحقيقة بكامل أوصافها.

إنّها دعوة لاختراق الواقع السطحيّ إلى ما يتجاوز الواقع المرئيّ، بلوغاً لما هو الأكثر واقعيّة وحقيقة من غير ريب.

إنّه، هكذا، شعر الواقعيّ نفسه – ونفسه هنا تعود للشعر – La poésie même du réel، على حدّ تعبيره.

وليس غريباً أن نجد هنا نَسَباً روحيّاً، بل تعبيريّاً حتّى، يجمع شارل حلو إلى معلّمه وأستاذه ميشال شيحا، الذي غامر، كذلك بدوره، بكلّ ما أوتي من إيمان ومن نزوع للحريّة. فارتسمت تحت ريشته أيضاً عبارة "الاقتصاد الشعري" الشهيرة Economique poétique، في سياق واحدة من وقفاته اللّماعة عند قضايا الاقتصاد، واللبنانيّ منه بخاصّة، من أجل مجد الانسان.

عن هذا الانسان، كتب التلميذ، بخطّ أستاذه وعلى خطاه:

"...La foi en Dieu est paradoxalement la chose peut-être la plus commune. Ce qu'il s'agit de ranimer en nous, c'est la foie en l'homme, - racheté et immortel. Croire en l'homme, c'est croire à sa dignité, à ses droits sur nous, à ses possibilités indéfinies - malgré ses défaillances - de redressement et de progrès".

"ربّما كان الإيمان بالله، وللمفارقة، أكثر الأمور التي يتشارك الناس فيها. فما يتعيّن علينا أن نحييه فينا هو الإيمان بالإنسان، – المستعاد المفتدى، والأبدي. والإيمان بالإنسان هو الإيمان بكرامته، بحقوقه علينا، بإمكاناته اللامحدودة – رغم تعثّراته – على النهوض والتقدّم".

اكتشاف الله في الإنسان: ذلك هو المغزى الإيمانيّ الأبعد عند شارل حلو الذي لا يعتبر القيامة هي ما ينتظرنا حرفيّاً بعد الموت. بل يدعو إلى رؤيتها، والإيمان بها، بكونها قد غيّرت أصلاً وجه الموت و... الحياة. إنّها التجلّي الذي يمدّ – على حدّ قوله – لحظاتنا، وأفكارنا، وأفعالنا بطعم وبقيمة خلود. وعلى هذا، يذكّر شارل حلو بما ذهب إليه الأب اليسوعيّ تيّار دي شاردان Le Père Teilhard de Chardin عندما قال:

"... باسم إيماننا، نحن لدينا الحقّ وعلينا الواجب في أن نُشْغَفَ بأشياء الأرض..."

"... Au nom de notre foi, nous avons le droit et le devoir de nous passionner pour les choses de la terre...".

ذلك أنّ ملكوت الله يبدأ على الأرض أيضاً. وهو ما سبق لي وتحاورت معه بشأنه. إذْ ليس هناك تاريخان، أحدهما مقدّس والآخر دنيويّ. هناك تاريخ واحد، هو تاريخ الإنسانيّة السائرة نحو ملكوت الله. ولذلك، فلقد التزم شارل حلو، بكتاباته المتنوّعة الأجناس والحلبات، تجسّد الروحيّ عبر انخراطه أبداً في الزمنيّ. وفي جميع حالاته، كاتباً، وصحافيّاً، وسياسيّاً، ومتعاطياً بالشأن العام، ظلّ حريصاً على قراءة الوقائع والمسائل في هذه الحقول كافّة، من زاوية مفهوم التجسّد جوهراً للقيامة، التي اعتبر، ذات مرّة، أنّنا ربّما لم نمعن التفكّر بها بما فيه الكفاية.

"فليست قيامة الروح هي وحدها التي بُشّرنا بها، بل قيامة الجسد أيضا".

"Ce n'est pas la résurrection de l'âme qui nous est annoncée, mais celle de la chair aussi".

ثمّ يضيف مؤكّداً على رسالة الانسان، على دعوته المتسامية على الطبيعة: "... ومشاريعنا نفسها كذلك، ماذا سيكون لها من معنى إذا كنّا جميعنا منذورين للموت؟"

"Nos projets aussi, que signifieraient-ils si nous étions ensemble voués à la mort?".

تشديد شارل حلو على الطابع الأبديّ في الإنسان، هو الذي يُضفي على كتاباته، من جهة أخرى، صفة التعامل معها بكونها مساراً لا يني يتقدّم دنيويّاً بجناحين: نصاب العمل ونصاب الحلم، وبما يراقب الواحد منهما شطط الآخر أو قصوره، كي لا تتكرّر مأساة Antoine de Saint Exupéry في **"Terre des hommes"** (أرض البشر) الحبيبة على قلب ذلك القارئ النهم شارل حلو، عندما تاه الطيّار مع مساعده في مغامرة ذلك الاحتضار الطويل بعدما "ضيّعا أثر الجنس البشري" "nous avions perdu la piste de l'espèce humaine".

إلى أن ظهر ذلك العربيّ فوق جَمله ملتفتاً إليهما. فعبّر كاتب "الأمير الصغير" **"Le Petit Prince"** عن ذلك بقوله: "... إنّها لأعجوبة، مشى إلينا على الرمل كإله على الماء..."

"C'est un miracle.. Il marche vers nous sur le sable, comme un dieu sur la mer".

ثم يسجّل شارل حلو كيف خاطب Saint Exupéry ذلك البدويّ بقوله:

"Quant à toi qui nous sauves, Bédouin de Libye, tu t'effaceras cependant à jamais de ma mémoire. Je ne me souviendrai jamais de ton visage. Tu es l'Homme et tu m'apparais avec le visage de tous les hommes à la fois. Tu ne nous as jamais dévisagés et déjà tu nous as reconnus. Tu es le frère bien-aimé. Et à mon tour, je te reconnaîtrai dans tous les hommes (...) Tous mes amis, tous mes ennemis, en toi marchent vers moi, et je n'ai plus un seul ennemi au monde".

"أمّا في ما يتعلّق بك، أنت الذي أنقذتنا أيّها البدويّ الليبيّ، فإنّك سوف تمّحي مع ذلك من ذاكرتي وإلى الأبد... سوف لا أتذكّر وجهك أبداً. إنّك الإنسان (L'Homme) وتظهر عليّ في وجوه جميع الناس في الآن معاً. أنت لم تلتق بنا أبداً، لكنّك عرفتنا. فأنت أخي المحبوب. وأنا بدوري سوف أتعرّفك في كلّ الناس (...) جميع أصدقائي، جميع أعدائي، يمشون فيك نحوي، ولم يعد لي من عدوّ في العالم".

أمّا ما كتبه شارل حلو تعقيباً على ذلك فجدير بأن لا نملّ من التوقّف عنده، ولا سيّما اليوم. وهو الذي كان حاضرَ فيه بالعام ١٩٧٥ تحت عنوان "الظمأ للحريّة، الظمأ للتشارك" (للتناول) La Communion.

كتب يقول:

"De telles révélations ne sont pas, Dieu merci, réservées aux rencontres exceptionnelles dans la solitude des sables. Ailleurs, plus loin, un peu partout dans les villes et dans les campagnes, sous des formes diverses, individuelles ou collectives ou étendues à l'ensemble de la planète (et à des niveaux différents: spirituel, intellectuel, scientifique, social ou économique), se manifestent le besoin des hommes, le besoin des peuples de se reconnaître, de se retrouver. La soif de communion apparaît comme une loi fondamentale de notre nature et comme une condition non seulement de progrès mais de survie de l'humanité. Car l'interdépendance des individus et celle des peuples sont désormais si évidents que le salut de chacun dépend, du salut de tous".

"ليست هذه التجليّات – ولله الحمد – وقفاً على اللقاءات الاستثنائيّة التي تحصل في وحشة الرمال. ففي أماكن أخرى، وأبعد، في المدن والأرياف، وبأشكال مختلفة فرديّة أو جماعيّة، أو على امتداد كامل الكرة الأرضيّة (وعلى مختلف الصعد، الروحيّ، والذهنيّ، والثقافيّ، والعلميّ، والاجتماعيّ، والاقتصاديّ) تظهر حاجة البشر، حاجة الشعوب، للتعرّف إلى نفسها، لتجد نفسها. فالظمأ للتشارك يظهر كقانون أساسيّ لجبلّتنا وكشرط لبقاء الإنسانيّة نفسها، وليس لتقدّمها وحسب. ذلك أنّ ترابط الأفراد، والشعوب كذلك، بات من البداهة إلى حدّ أن خلاص الواحد يتعلّق بخلاص الكل".

الكاتب شارل حلو قارئ بامتياز. لكأنّما الكاتب، بالنسبة إليه، يتميّز بمقدار ما يكون قارئاً. ولنا بالكثير من الاستشهادات التي تضمّخ مقالاته بعطر العديد المتنوّع من الكتّاب، خير دليل على هذا الاعتبار. وأعتقد أنّه في ذلك على حقّ. ذلك لأنّ الكتابة، كما القراءة، فعل حوار بالدرجة الأولى، بل دعوة إلى استوائه واستقامته على أساس الفكر النقديّ.

ولأنّها كذلك، تراها تنكتب إبداعاً. وهذا ليس فقط لأنّها بحاجة دائمة للآخر، لمن يقرأها. بل لأنّ هذا الآخر، أساساً، وباختلافه من حيث الأساس، يتقدّم أيضاً بذاته المختلفة، بفرادته، شرطاً لنجاة الكتابة نفسها من التماثل الذي هو موت الإبداع.

بهذا أيّها السادة، تغدو الكتابة طريقة في التفكير. في النقاش. في الإيمان ذاته. وفعلاً، فإنّ الإيمان المسيحيّ يرفع بالكتابة عند شارل

حلو إلى صعيد أعلى، إلى مصافّ عمليّة أو سيرورة متواصلة دائمة في فحص الضمير processus continu، بالمعنى التامّ إيّاه الذي ذهب إليه كاتبنا عندما قال:

"Que chacun, s'il veut connaître ce que lui réserve l'avenir, fasse un examen de conscience au lieu de scruter les astres".

"على كلّ من يرغب في معرفة ما يخبّئ له المستقبل أن يفحص ضميره بدل أن يتفحّص النجوم". فالكتابة مساءلة بدورها، تنتعش بالأسئلة، وتتبلّد بالأجوبة الجاهزة، المعلّبة، المحفوظة، الموروثة.

أجل مساءلة، بالمعنى التامّ ذاته الذي يذهب إليه الإيمان المسيحيّ الحقّ برفضه الركون إلى راحة الضمير. بحضّه على الانتباه إلى أنّ المسيحيّة التزام روحانيّ لا يعرف خاتمة: لا تقل إنّك مسيحيّ. قل إنّك تسعى دوماً لأن تكون كذلك.

وقبل أن تكون الكتابة مجرّد تعبير عن رأي أو عن إحساس، فهي تتجلّى بحثاً لا قرار له في انخراط الروحانيّ في الزمنيّ، في عمليّة دائمة التجدّد – أعود وأكرّر.

من هنا هاجس تحرّي الدقّة والتدقيق في اختيار الكلمة الملائمة والتعبير الملائم، ما دامت الكتابة تحيل إلى فحص الضمير، وما دامت خياراً حقيقيّاً يصبو، في النهاية، إلى الفوز بالكلمة التي تنجّي وتشفي.

فالكلمة عند الكاتب شارل حلو خيار بالغ المسؤوليّة، كالقرار نفسه الذي عليه، في النهاية، أن يتّخذه وحيداً. فلقد كان عليه، حاكماً، أن يتّخذ القرار وحيداً، بعد ارفضاض المستشارين من حوله وانسحابهم

مع الآراء التي أدلوا بها، باستثناء مستشاره الأخير، ضميره الذي يظلّ رضاه واقتناعه إجازة المرور لأيّ قرار أو موقف.

أمّا من جهة ملازمة أخرى، فهو لم يستطع أن يكظم امتعاضه كلّما صادف استهانة أو استخفافاً باختيار الكلمة المناسبة، وهو الذي اشتهر بالكثير الكثير من الخفر والإشاحة المتعمّدة عمّا يشي صراحةً بارتياب لديه من وجود بشاعات أو من اشتباه بوجودها.

غير أنّ نقاوة اللغة والتعبير تكاد أن تساوي بقدسيّتها مقاربة الصلاة نفسها، بالنسبة إليه. فالخطأ أو الاستسهال في صدد الكلمة أو العبارة، يكاد أن يكون بمثابة الكفر بعينه، قل التجديف على الحياة نفسها.

فعندما باغته أحد الأطبّاء اللاّمعين بقوله:

Monsieur le Président, vous avez 50% de chance d'avoir un cancer.

ردّ الكاتب شارل حلو محدّثاً عن نفسه بالقول:

"J'étais assez surpris et affligé par ce propos, moins à cause du cancer qu'il semblait annoncer que pour la confusion que l'éminent chirurgien faisait entre "les chances" et les "risques" du cancer".

"لقد اعتراني الذهول والحزن حقّاً من جرّاء هذا الكلام. ولم يكن ذلك بسبب السرطان الذي ظهر وكأنّ الطبيب يبشّر به، بقدر ما كان حقيقةً بسبب الالتباس الذي وقع فيه الجرّاح اللاّمع خالطاً بين "حظوظ" و"مخاطر" الإصابة بالسرطان".

لكنّ السرطان نفسه لم يكن صدفةَ مفردةٍ لغويّة في حياة شارل حلو كما تعلمون. لقد نازله في أعزّ من أحبّ، في زوجته الحبيبة "نينا" التي

بادلته عشقاً للكلمات لا يحدّ. فقاوما معاً ألم ذلك المرض الفتّاك بالكلمات المتقاطعة، متابعين بتواطؤ نادر الحبّ، حياتهما المتقاطعة، رغم الأوجاع الماديّة والمعنويّة الفظيعة.

لقد كانت نينا طراد – حسبما تبدّى في الكتاب الذي وضعه زوجها لها وعنها – الكلمة الضائعة في حياته إلى أن أحبّها واقترن بها. وعندما دبّ المرض لينتزعها من بين ذراعيه ومن ضمّات ضلوعه، سارع إلى صونها والمحافظة عليها مجدّداً من الضياع، إنّما بالكتابة هذه المرّة. عندما كلّمها شارل حلو لم يستشر غير قلبه. وعندما ثأر من السرطان لم يتسلّح بغير عشقهما الواحد المشبوب المشتعل للكلمات والكتابة.

أوَليست الكتابة طريقة حياة وعيش في نهاية الأمر؟ طريقة لقهر الموت؟

تحت عنوان "عندما أكون قد مت" المستعار عبارةً من جورج شحادة، كتب شارل حلو في ١٩٦١/١١/١٩ يقول:

"Pour être l'objet d'un jugement objectif, d'un jugement d'ensemble sur sa vie et sur son œuvre, chacun a besoin d'être jugé à distance, avec un "recul" qu'il ne peut trouver qu'à titre post-hume".

"كي يكون كلّ واحد موضوع حكم موضوعيّ، حكم شامل على حياته وأعماله، سوف يحتاج إلى أن يُحاكَم من على مسافة، من بُعْدٍ ما، لا يمكنه أن يجده إلاّ بعد الممات".

ثمّ يضيف مستشهداً بشعر جورج شحاده:

"Mademoiselle voici mon adresse vous m'écrivez quand je serai mort..".

"ها هو عنواني أيّتها الآنسة

ستكتبين لي عندما أكون قد مت".

لقد جزت، أيّها الصديق الراحل الكبير، المسافة الضروريّة إلى الخلود. وبذلك لم تهبنا فقط إمكان سعي ما لإنصافك، بعدما كتبتنا أحياءً، بهواجسنا، وقلقنا، وتطلّعاتنا التي يظلّ إبداعك من أوائل المبادرين إلى صوغها بأناقتك الأخلاقيّة والفكريّة والجماليّة الرفيعة.

إنّك، على كلّ حلّك وترحالك في الثقافة، وفي متون الكلاسيكيين والرومنطيقيين، والفلاسفة الروحانيين، علّمتنا كذلك فضيلة العودة إلى موانئ الوطن لبنان، ونعمة المحافظة عليه فضاءً لا يبدو فيه الإخاء "مجرّد وصيّة، بل شرط للحياة والديمومة"، ومناخاً للحريّة التي قلت إنّه "لا معيار آخر لها، في السياسة على الأقلّ، إلاّ السباحة عكس التيّار".

"En politique tout au moins, il n'y a pas d'autre critère de la liberté que de naviguer à contre-courant".

أمّا بشأن الديموقراطيّة فيحسن بنا جميعاً أن نلتفت بانتباه كلّي إلى عبارته–الدليل التي كتبت في ٣٠ أيلول ١٩٥٧، قبيل أحداث ١٩٥٨:

"Un régime n'est pas seulement responsable de ce qu'il fait. Il est responsable aussi, et dans une très large mesure, de ce que font ses adversaires, de ce qu'il les accule à faire".

"نظام الحكم، أي حكم، ليس مسؤولاً فقط عمّا يفعل. إنّه مسؤول كذلك، وإلى حدّ كبير، عمّا يفعله خصومه، عمّا يدفع بهم هذا النظام دفعاً فيحشرهم، ليفعلوه".

لكنّه حتّى على هذا الصعيد، السياسيّ بامتياز، لا يسع شارل حلو أن يتخلّى عن الأخلاق، ضنّاً منه حتّى على السياسة نفسها. فمن دون أخلاق، سوف تبقى كلّ سياسة تدبيراً غاشماً. فالشرائع في الجمهورية لها روحها كذلك. وما كان عليه إلاّ أن يستذكر مونتسكيو في "روح الشرائع" ليظهر ما الذي يمكن أن تكون عليه، في الجمهوريّة، الفوضى المتأتّية من نقص بالفضيلة.

هل بات لبنان في وضعيّة من الممارسة السياسية لا تُمْتَهَنُ الأخلاق فيها، بحيث يصبح تذكير تشارل حلو بالأخلاق روحاً للسياسة من النوافل البلا عازة، قولاً وكتابةً؟

ذلك أنّ كل ما كتبه شارل حلو، إنّما حبّره بنبض قلبه، ونبله وعظم أخلاقه، وانفتاح عقله، وبلغته الفرنسيّة المرهفة الرائعة، من أجل لبنان، أوّلاً وأخيراً. حتّى أنّ حضوره المتميّز والمحدّد، في إبداع تكاوين الفرنكوفونيّة وتأسيس مضامينها ومسار تطوّرها، إنّما كان من أجل لبنان بالذات.

"فخدمة بلادي التي أحبّها – يقول شارل حلو في صدد جهاده وعطاءاته الفرنكوفونيّة – إنّما تعني في الوقت نفسه التعبير عن القيم الكونيّة. والتأكيد، في ما هو أبعد من حدود لبنان. على هذه النزعة الإنسانيّة humanisme المنفتحة المرحّبة التي تميّزه وتجعل منه رائد كلّ حوار بين الثقافات".

فالازدواجيّة اللغويّة اللبنانيّة، في تعريف شارل حلو وعرفه، ليست أبداً ذلك المزيج الخليط من الكلمات ما بين عربيّة وفرنسيّة.

إنّها في مطرح أبعد وأعمق: إنّها، من حيث الأساس، التمظهر البهيّ لتكامل الثقافات.

Qu'est ce que la francophonie?

فلنصغ إلى جوابه– البوصلة في تحديد مدار الفرنكوفونيّة حيث يقول:

"Nous l'avons définie souvent par ce qu'elle n'est pas. Nous avons souvent répété, le Président Edgar Faure et moi, que la francophonie n'est pas un impérialisme politique ni un impérialisme linguistique. Elle est une culture ouverte à toutes les cultures, un dialogue des cultures et, en particulier pour nous, libanais, un dialogue des cultures arabe et française, depuis des siècles".

"لقد عرّفناها غالباً بما ليست عليه. وغالباً ما كرّرنا، الرئيس إدغار فور وأنا، أنّ الفرنكوفونيّة ليست امبرياليّة سياسيّة ولا امبرياليّة لغويّة. إنّها ثقافة منفتحة على جميع الثقافات، إنّها حوار الثقافات، وبخاصّة بالنسبة إلينا نحن اللبنانيين، حوار بين الثقافتين العربيّة والفرنسيّة، منذ قرون".

لكنّه، مع ذلك، لا يركن إلى ما أبدع وعرّف. فتراه ينطلق إلى تعميق مقاربته التي تنضج تعريف الفرنكوفونيّة بما هي. فيكتب مخاطباً الجمع الفرنكوفونيّ:

"La francophonie c'est un humanisme parlant français (...) Ce qui nous unit, ce n'est pas une même langue mais un même langage, celui de l'humain et de l'Universel".

"الفرنكوفونيّة هي النزعة الإنسانيّة ناطقةً بالفرنسيّة (...) إنّ ما يوحّدنا ليس اللغة الواحدة، بل الكلام الواحد، كلام الإنسانيّ والكوني".

ولا يغربنّ عن البال أنّ في أساس وفي ضمير كلّ ما تقدّم على لسان وقلم هذه الشخصيّة الفرنكوفونيّة الفذّة، إنّما يكمن وينبض أبداً كلّ

ذلك التراث الروحيّ الفكريّ الحضاريّ الفرنسيّ الإنسانيّ، بقيمه ومفاهيمه الباهرة في الحريّة والإخاء والعدل وحقوق الإنسان.

ولم تكن قامة شارل حلو السامقة في أعلى هيئات الفرنكوفونيّة، ولا مساهماته الجوهريّة الحاسمة بصوغ توجّهاتها واختياراتها الثقافيّة والعلميّة والاقتصاديّة، سوى امتداد لقامة لبنان بالذات. لبنان الذي لم يملك الرئيس الفرنسيّ الراحل فرانسوا ميتران إلاّ أن يراه ماثلاً، بعذاباته ورجاءاته وآماله، في شخص شارل حلو. فإذا به يعرّف لبنان فيما هو يقارب شخصيّة شارل حلو بوصفه الآتي لها:

"فهذه الشخصيّة التي ترمز إلى الإنسانيّة الأكثر نبلاً وتجسّدها، هذا الذي يتعالى فوق الفوارق، والمآسي، والأحقاد... إنّ رجل الدولة، والشاعر، ورجل الإيمان، الذي هو الرئيس شارل حلو، أطلق باتجاهنا نداء من أجل لبنان لا يمكن ولا يجب أن يظلّ من دون جواب".

بهذه العبارات، ردّ فرانسوا ميتران على نداء شارل حلو في واحد من أبرز الاجتماعات التاريخيّة للفرنكوفونيّة، خاتماً ببالغ التأثّر:

"Il ne faut pas que le Liban soit le remords du monde"

"يجب ألّا يكونَ لبنان ندم العالم".

* * *

"**في الواجهات والمرايا**"، المقالة التي كتبها عام ١٩٧٣، في جادّات باريس بعدما ارتاح من أعباء الرئاسة، يتساءل شارل حلو عمّا "إذا كانت صورة الحاضر أوضح أصلاً من ذكرياته (ورجاءاته) التي

يموضعها – كما يقول – في رؤية أخرى: رؤية بلاده نفسها التي تظهر عليه عند كلّ المفارق كتألّق الشباب، والحلاوة، والدعة، كعمل إبداعيّ لا بديل منه، إبداع الإنسان، المخلوق نفسه على صورة الله".

ثمّ يضيف متكلّماً على نفسه بضمير الغائب: "كلّ ما عدا ذلك، الجادّات، الأرصفة، شارات السير، الأنصاب والتماثيل، جميعها يغمرها نور رماديّ. وتبدو له باهتة، متبدّلة. هو نفسه لا يعبأ بكونه هشّاً، سريع العطب. فليس هذا سوى تفصيل، كما يفكّر".

"L'image du présent est-elle d'ailleurs plus nette que ses souvenirs (et ses espérances)? il les situe dans une autre vision, celle de son propre pays qui lui apparaît à tous les carrefours comme un rayonnement de jeunesse, de douceur et de grâce, comme une œuvre irremplaçable, un chef d'œuvre de l'homme, créé lui-même à l'image de Dieu".

"Tout le reste, les avenues, les trottoirs, les feux de circulation, les monuments, lui semblent baignés dans une lumière grise. Ils lui paraissent flous et changeants. Lui-même ne s'inquiète pas d'être fragile. Ce n'est, pense-t-il, qu'un détail".

اسمحوا لي أن أعتبر ما حاولت تقديمه، بمثابة دعوة إلى قراءة ما خلّفه الكاتب شارل حلو الذي لم يكن تفصيلاً في حياتنا الصحافيّة والسياسيّة والثقافيّة والفكريّة، ولا في تاريخنا اللبنانيّ، ولا في عالم الفرنكوفونيّة. ففيها كلّها كان الرائد المعلّم، والعَلَمَ الخفّاق، وعنوان الكتابة.

ولسوف يظلّ علامة فارقة، وقدوة، في مساءلة الضمير وانتقاء الكلمة الملائمة بأشدّ تطلّب ممكن، في كتابة فرنسيّة سوف تظلّ، بجماليّتها وإشراقها ونضجها وتميّزها الأسلوبيّ، خير برهان يصادق على قولة الأب غريغوار الشهيرة:

"Le français est la langue de la liberté" – "الفرنسيّة لغة الحريّة".

رجل الانفتاح والاعتدال

السلام عليكم، وشكراً للهيئة المنظّمة لإشراكي في هذه الذكرى، وعذراً من روح الرئيس حلو، وليس لمثلي إلاّ أن يعتذر لعدم إيفائه حقّه، وبالخصوص إذا كان إلى جانب علمين دون كلّ منهما قول الشاعر: علم في رأسه نار، حيث يتلجلج أمامهما أيّ قول، فكيف بي وبعنوانٍ اعتُبر فرعاً في جلسة، بينما عنوانٌ مثلُ (رجل الانفتاح والاعتدال) يصحُّ أن يكون عنواناً لكتاب إذا أردنا أن نفيه حقّه لتضمّنه ثلاث نقاط:

١- نمط الحياة الشخصيّة للرجل.

٢- شبكة العلاقات الاجتماعيّة وأسلوب استخدامها.

٣- ما صدر عنه من أقوال علنيّة وتعاملات صريحة من دون تخوّف أو حذر، مع وجود أسباب للتخوّف والحذر.

ويستتبع، بالنسبة للرئيس حلو، الحديثَ عن إشكاليّة تولّي المفكّر مسؤوليّاتٍ سياسيّةً حتّى الرئاسة، أو أنّ وظيفة المفكّر هي ما يوحيه قول ديغول: (وراء انتصار الاسكندر يجب التفتيش دائماً عن أرسطو).

سأحاول، قدر الإمكان، أن أستقرئ النقاط الثلاث في حياة الرئيس الحلو، التي عبّرت عنها ذكرياته؛ وقد شكّلت بمجموعها نمط الحياة

الشخصيّة؛ ومن ترفّعه أدخل كلّ ما يعتبر من خصوصيّات في النسيج العام للحياة، حتّى جاءت كتابته تُبرزُ الصفاتِ الكامنةَ إذ (في بوتقة كلّ كائن يتمازج الفطريّ بالمكتسب في طريقة عجيبة)]صفحة ١٩ ، على قول صاحب الذكرى، فتمازجُ طيبَ العنصرِ فيه وتوازنُ شخصيّته، فكان الانفتاحُ والاعتدال.

ولا أستطيع أن أرسمَ ملامحَ لصاحب الذكرى إلاّ بالتعرّض إلى المكوّنات لشخصيّته إلى جانب أقواله، وفيها كلّها تعريفٌ عن رجل انفتاح واعتدال.

لم ير الرئيس حلو في أبيه ذلك الحادبِ على المادّة في الأولاد وما يشتهون فقط، بل هو الصانعُ للتطلّعات المفتّحُ للذهن؛ فحكايا الأب، لم تكن لتستنفر أخيلةً بطوليّةَ التوهّم بالعنتريّة؛ فعنترة (البطل العظيم الأسود) قد (يغيب في ليل الجبابرة، و(ينسلخ عن حبيبته عبلة)، ولكن (على وقع الآمال) (ص/٢٠):

"يا عبلة

إذا – يوماً ما – وُلدتِ الثمرةُ من الشجرة

وإذا أخصبت روحَك شفارُ حبّي

فليكنْ أبيضَ مثلَك

ومستقيماً مثلَ شمعةِ الطفل

الطفلُ الوحيدُ من ليلتِنا الوحيدة" (ص/ ٢٠)

هذه الحكايا التي يرويها الأب على شرفة البيت المستأجر، وكأنّه يرمي إلى ربط الخيال بالصدمة بالآمال، بالمحيط حيث (جلبة آخر حافلة كهربائيّة، منحدرة في طريق الشام، تغطّي أحياناً صوت الوالد فيما كانت أحلامنا الطفوليّة، تستقرّ على الخطوط الحديديّة) (ص/٢١)

لم تكن في نظري هذه العبارات وعبارات كركول العبد، السقف القديم – الطابق الثاني وسواها التي رافقت (**سيرة فتى من الشرق**) (ص/ ٢٠) منذ كان دون الخامسة من العمر، لم تكن لاستكمال مشهد الطفولة، وإنّما استجماع عناصر بناء الشخصيّة التي – ربّما – قصد إليها الأب من الجَمع بين الأسطورة وما تحدثه من الأخيلة، وبين الواقع الذي يضجّ حتّى يغطّيَ على الأصوات أحياناً، وأخيراً يضيع الضجيج لتبقى الخطوط متساوقةً في امتدادها مع الحركة الدائمة للأب في قياس قامتَي ولديه، أسبوعيّاً بدقّة الصيدليّ. وهذه العبارة أيضاً تلفتني، لأنّه لا مجال للشكّ عندي بأنّ الأب لم يكن فقط يريد أن يرى أولاده يكبرون، لإحساس داخليّ بأنّه لن يرافق الكبر طويلاً، بل يتمنّى لهم طموحات كبيرة؛ وما الأساطير على الشرفة إلاّ غرس أرضيّة لهذه الطموحات أو تفعيل الجسد لاستحداث روح نجدها تستكمل صيغتها النهائيّة مع الأمّ.

فبعد أن كان الربط بين العقل والعوامل الخارجيّة عند الأب (حكايا – واقع)، تولّت الأمّ شؤون القلب، إذ أفاضت حنانها على أولادها راعيةً لحركاتهم، مجاهدةً لتأمين متطلّباتهم الشخصيّة وحاجيّاتهم الحياتيّة، وربّما تتقصّد أن يكون الفتى شارل رفيقها في الكثير من تحرّكاتها،

فكان مع الأمّ الربط بين القلب والعوامل الخارجيّة (العاطفة – الواقع)، وإذا نحن أمام شخصيّة تتوازن فيها العناصر في الإنسان السويّ، الفكر – الشعور – المادّة، فكان شارل حلو.

شارل حلو الذي كان يجتاحه الحزن عند مواساة من يفقدون أمّهاتهم يتذكّر مواساة الرئيس تقي الدين الصلح له بفقد أمّه: (ما عساي أقول لك سوى أنّي أنا فقدت أمّي. هو جرح لن يشفى منه أحد؛ وهناك تعاضد حميم جدّاً بين كلّ الذين فقدوا أمّهاتهم، إذ يكفي أن يتلاقوا ويشعروا بأنّهم متّحدون) (ص/٢٦)

ويذكر من قراءاته إهداء نجيب حنكش مؤلّفه إلى أمّه بالقول: (يا أمّي، أحبّ كلّ الأمّهات من أجلك) (ص/٢٦)

هذا المتّحد هو الذي أبرز ما يحتفظ به شارل حلو من خصوصيّة، خصوصيّة من فرادتها أنّها الوحيدة التي أراد أن يدخلها في متّحده الروحيّ، فلم يجعل منها شمالاً تهزّ العالم، بل أحاطها بما يوازي الأسرار المقدّسة، فكان حبّ حنكش لكلّ الأمّهات من أجل أمّه – على بساطة كلماتها: (أبانت لعيني المشبعتين بالحنان – يقول الرئيس حلو – أحد أروع الأسرار في العالم، وهو اتّحاد الأمّ الكامل وغير المنفصم بأولادها) (ص/٢٧)

إنباتٌ بيتيّ كما ألمحتُ، وتنمية مدرسيّةٌ وجامعيّةٌ على ما وصفه الطالب شارل حلو، عدد من الأساتذة والمربّين والعلماء والمفكّرين والإداريين رهباناً وعلمانيين، مدنيين وعسكريين سابقين، بطبائعَ تعرض كلّ ما في العالم من تباين في الأنماط والممارسات

والتوجّهات، مع أنّها ملتزمة جميعها بالخطّ التديّنيّ، تستكمل فيه الدورة التربويّة، ويخرج الطالب شارل وقد ثبت انتماؤه للسلطة الروحيّة و(السلطة الروحيّة فعل اختيار قائم بذاته) (ص /١٣٦) هذا ما قاله؛ وهكذا عاش، وكأنّه يصف نفسه إذ يتحدّث عن قداسة البابا بيّوس الثاني عشر، فيقول: (يبدو لي وكأنّه يتحرّك على تخوم عالمين: المرئيّ وغير المرئيّ) (ص /١٣٢)

لم تكن مسألةَ بداء، وإنّما هو واقعُه الروحيّ، فمن لا يعيش روحيّاً على تلك التخوم لا يرى من يتحرّكون عليها، فضلاً عن أنّه يستحيل أن يتمتّع بمثل هذا البداء أو التخيّل.

ذكريات الرئيس حلو تضجّ حروفها بأنّه (مؤمن بالقيامة والحياة) (المقدّمة) هذا الإيمان الذي هو حدود لبنان الوطن: (لبنان وطن المحبّة، ووطن الرجاء) (المقدّمة) المحبّة والرجاء ليسا من أفعال الخارج، وإنّما من أفعال الداخل، من أفعال القلب موطن الإيمان، وهو الدافع لإخراج هذا الإيمان ليتحرّك فعل محبّة ورجاء على تخوم المرئيّ وغير المرئيّ، فعل المحبّة المتنامي بين الموجودات في الكون، وفعل الرجاء المواصل بين الأرض والسماء والمتواصل مع المطلق، ومن هنا كان قوله: (إنّ علّة وجود لبنان، بل ضمانة وجوده، هي في قيامه برسالة روحيّة وإنسانيّة تجعله ضروريّاً للعالم أجمع) (ص ١٤٢) وأرغب أن أؤكّد على العبارة ضمانة وجوده. قد يرى أنّ ما استقرأناه من مذكّرات شارل حلو، هي شطحات متصوّفة أو رهبان يتحنّفون في منقطع من الأرض.

ثمّة جانب من الرئيس حلو تمتلكه هذه الروحيّة، ولكنّه لم ينقطع عن الناس ليعيش في محبس النظريّة، كما هو حال المتصوّفة النظريين (حسب التقسيم الأكاديميّ للمتصوّفة)، بل كان من المتصوّفة العمليين يعطي للحياة حقّها، يسعى أوّلاً أن يربّي نفسه، وأوّل ما يطالعنا في مذكّراته عبارته (الأنا مقيتة) (ص/١٩) وهو إذ يذكر انعكاساتها السلبيّة على النفس البشريّة، لا يسلّمنا لإنشائيّات وبلاغيّات هي في ثناياها تضجّ بـ (الأنا)، بل استعرض كامل مراحل حياته واستبطن نفسه ليكتشف أسباب مقته للأنا، وربّما ليكتشف الأفعل في الأسباب ليتحصّن به خلال كتابته لمذكّراته. من هذه الزاوية فهمت تركيزه على التردّد عنده، وهو يصرّ في مواقعَ عدّةٍ على ذكر التردّد أو الارتياب بالقدرات، الذي لم أجده متردّداً بين الفعل وعدم الفعل، بل ألفيته متردّداً في تنفيذ الفعل باحثاً عن الأصلح تفضيلاً به عن الصالح. وأصرح تعبير عن حالة الانفكاك من (الأنا المقيتة) ومن وصمة التردّد هو قولُه: (ما يعزّيني هو نقد الذات الذي كثيراً ما ألجأ إليه، فيردّني إلى حقيقة الأشياء وحجمها المتواضع)]المقدّمة.[هذا اللجوء الذي مارسه في مطلع شبابه وبداية عمله الصحفيّ الذي أعطاه حجماً يقول فيه (ولطالما خامرني، في حلب، الإعجابُ بنفسي، وأنا أُعَامل في المحافل العامّة كشخصيّة هامّة ذات مكانة).. (ولكن عليّ أن أضع حدّاً لذلك التألّق) (ص/٥٠)

خيار شارل حلو للسلطة الروحيّة يعبّر عنه في مواقعَ كثيرةٍ حكمت نهجه الفكريّ وسلوكه العمليّ وعلاقاته بالناس والأشياء، أختار منها نماذج:

فهو يفضّل الكلاسيكيين عن الرومانطيقين، ويبيّن السبب باستشهاده بجملة من مقدّمة كتبها (هنري بوردو) لقصّة العتبة والثلج وهي (الأبطال الرومانطيقيّون لا يجدون نهاية لهواهم إلاّ في الموت، بينما يرى الكلاسيكيّون تلك النهاية في الحياة وقبولها) ويضيف (الحياة أقوى من الموت الذي تشمله) (ص/٣٨)

ولأنّ الحياة هي المدى لفاعليّة الإنسان وعطاءاته التطويريّة، كان أرسين لوبين بطله المفضّل، على كثرة ما في كتابات المشاهير من الكتّاب الفرنسيين وغيرهم من أبطال، لأنّ في أرسين لوبين صورة عن التعامل مع الحياة، ويبيّنها بقوله: (أرسين لوبين، اللص المهذّب، القادر على كلّ الاكتشافات وكلّ الأعمال الحميدة سيبقى بطلي المفضّل) (ص/ ٣٨)

لذلك، ليس غريباً أن نراه يخرج عمله من حدوده الوظيفيّ إلى ما هو المجال الإبداعيّ والخلاّق: (الجريدة بالنسبة إليّ، مكان التقاء ثقافيّ رفيع، ومركز إشعاع وتعبئة وإبراز للمواهب المتعدّدة) (المقدّمة)

من هنا نجده يرتبط بعمله على مستوى العشق الصوفيّ: (لم تكن الصحافة في نظري مجرّد خبر ينشر وفكرة تعرض قضيّة عادلة تؤيّد، بل هي أيضاً شميم الحبر والورق والتنضيد باليد وضجيج الطابعات) (ص/٥٤)

وقد عبّر عن هذا العشق للعمل بالقول: (وكان هدفي، لا دقّة الترجمة وصدقها فقط، بل أن يتضمّن النصّ الفرنسيّ ما يحتويه النصّ العربيّ من بلاغة ومتانة وسبك دعابة أحياناً) (ص/٥٣)

هذا الإنسان الذي قدّر الصحافة على هذا المستوى الأخلاقيّ في العمل المهنيّ لم يغفل ما أعطته الصحافة من دروس وما فتحت أمام فكره من آفاق من خلال الترجمات التي قام بها والتي: (علّمتني الحلم والتسامح، لأنّي كنت أواجه آراء ليست آرائي، وكذلك الاحتشام والتواضع، إذ قُدّر لي أن أقيس المدى الذي وصل إليه من هم أكبر منّي وقبلي) (ص/ ٥٣)

لم تأخذه انشغالاته في العمل، ولا تطوافه في الآفاق ولا سبحه في عوالم الفكر، لم تأخذه من أن يعود بين حين وآخر إلى مسارح حنينه، إلى الآباء اليسوعيين، إلى الزملاء، إلى رابطة قدامى الحكمة وإلى تنسّم الحنين في يوم ريفيّ.

ويوماً فيوماً تعمر قائمة معارفه بالأساتذة في الصحافة والأدب فالزملاء فالتلامذة والأصدقاء في كلّ مكان، ويفوح من القائمة عطر الودّ والمحبّة لكلّ فرد فيها، ولكلّ فرد شميم مميّز، حتّى أنّ صداقة (اختلاف الرأي) مع جورج نقّاش كان لها فوحها المعبّر عن إنسان كبير يتمثّل بداخل كلّ منهما؛ إنّهما الخصمان المتبادِلان سهامَ الفلّ والزنبق.

هذا شأن من ينتمي إلى الكلمة المدافعة عن الكرامة والحريّة، ويرفض أيّ انخراط بحزب لتبقى كلمته (تنطق بلسان أوسع شريحة من الشعب) (ص /٤٩)، كما يرفض أيّ عمل في جريدة تنال من هذا الالتزام.

لا أدري إن كان سبق وقرأ قولة وليّ الدين يكن (يريدون أن أكتب ما يقولون، وأريد أن اكتب ما أقول)، ولكنّه لا شكّ بأنه متأثّر بقولة قبلان فرنجيّة (تستطيع أن تكون بطلاً من دون أن تدمّر الأرض) (ص/٥٦)

مثل هذه المأثورات التي انعكست تقييمات لكلّ فرد عند شارل حلو أبرز منها وجه الإنسان الذي يراه هو، دون الوجه المخالف للقيم الإنسانيّة، ولذلك لم يرد ذكر بسوء لأيّ فرد، محافظاً على دفء العلاقات حسب تعبيره: (.. وإذا تجاوزنا روائع الطبيعة ومفاتن الفنّ، نصل إلى دفء العلاقات بين الناس وقيمها، فمن الأكيد أنّ المساحة الأكثر اختلاباً من الأرض هي، حسب حكمة صادقة، وجه الإنسان) (ص/١٢٩) ومن يتجاوز روائع الطبيعة، يتجاوز سلبيّات الناس.

وإذا كان وتطرّق لسلبيّات، فإنّما هي سلبيّات عيش وصمود إنسان، إمّا بالانتصار عليها أو بالالتفاف على مآسيها، كما هي صورة خليل الجميّل (العصامي والمقدام والفخور بفقره، وقد توصّل عبر طول المراس والشجاعة والكرامة إلى فرض نفسه على الشبّان أترابه) (ص/٦٠) والذي (لا شكّ أنّ وجوده وهبنا محبّة شبيبة ورعة وخلوقه) (ص/٦٠)

أو كما هي صورة الكادحين رفاق الرحلة إلى حلب، وقد تأمّل أحدهم وقد وصل إلى غايته و(ذهب يسكن عالماً آخر حيث طريقة النوم والشرب والأكل والتفكير والحبّ مختلفة تمام الاختلاف عمّا كنت أعرفه وأحبّه) (ص/٤٨)

شارل حلو متديّن، وتديّنه ليس قدريّاً تواكليّاً. فهو مؤمن بحقّ الإنسان في الحياة كما يؤمن بحقّ الحياة على الإنسان، وإن كان الآخرون

يُعزون نجاحاتِه إلى جانب نينا طراد المحامية، هذه الفتاة التي يرى أنّ (عقلها يربكني ويجذبني أكثر من جسدها) (ص/ ١١٣)، يَعزون النجاح إلى ما هو خارج عن حَملِ الإنسان لقضيّته، كما هو شأنُ من لا يعرفون طريق النجاح فلا يحقّقون ما يرتجون. ولكنّ تفسيره لنجاح الثنائيّ: حلو طراد، سببُه، حسبَ قوله: (وثابرنا على تقدّمنا ونجاحنا رغم أنّنا لم نكن الأشدّ بلاغة، بل كنّا، فقط، الأكثر فعاليّة ودأباً) (ص/ ١١٤).. (إذ تمكّنت من تخفيف ثقل نظام الانتداب عن كاهل مواطنيّ اللبنانيين، وطالما غمرنا الارتياح، أنا ونينا طراد، ونحن نسخر من المحتلّ، الذي وسّع صلاحيّات القضاء العسكريّ، وقد أضرّ بالشعب بدون فائدة). (ص/ ١٠٥)

ولا يقتصر هذا على النظراء في المهنة. فالسياسيّون (عندما يرقى واحد من أمثالهم إلى الشرف الأسمى، تحيط به، على التوّ، هالةٌ من السحر، وينتشر اللامعقول دونما قيود وسدود، ويبدأ الحديث، آنئذٍ، عن القدر، ويُنظر إلى حياة ذلك الإنسان بمنظار خاصّ، دأبُه البحث عن تفاصيلَ كانت سابقاً غيرَ ذاتِ معنى؛ فهكذا تُصنع (استدلاليّاً الأقدار). (ص/ ١٦٤)

أمّا هو، فكيف يفسّر ما سُمّي بالأقدار؟ إنّه فقط (تلاحق بعض الظروف المتاحة، التي كنتُ الرجلَ الذي لبّاها بجدارة) (ص/ ١٦٤).

ذكريات شارل حلو كتابة تاريخيّة بوقائعها وأحداثها، ولكنّها ليست من التاريخ الذي لا يؤمن به. ما يتنكّر له من التاريخ هو الذي أعطى مثلاً عليه من اختلاف مفكّرَين سياسيّين عربيّين من شمال أفريقيا،

حيث أثبت أحدهما معركة (بواتييه) باسناد، وأنكرها آخر بأسناد. التاريخ غير المؤتمن هو تاريخ الملوك والأمراء الذي لفّقته المصالح الشخصيّة والأهواء. ونحن الشيعة أكثر الناس تضرّراً من الكتابة التاريخيّة. ولذا، لا نستطيع إلاّ أن نوافقه على عدم الثقة بمثل هذا التاريخ. ولذلك، وحتّى لا يقع تاريخنا الذي عشناه نحن طعمةً للأهواء، فإنّني أستفيد من هذه الوقفة لنقول صدقاً في رجل أؤمن بصدقه. أستفيد من هذه الوقفة لأدعو إلى تحرير تاريخنا، الذي عشناه على الأقلّ، ونجرّده من شوائبه. وَلْنبدأْ بحقبة حكم شارل حلو، الحقبة التي تعرّضت لتباينات في الأحكام، إن لم أقل الأهواء، والتي لم يوفّرها أحد من آحادنا أو مجموعاتنا. فلنبدأ بتحريرها، مع فهم الخط السياسيّ العام الذي رسمه شارل حلو. فنحن لا نستطيع أن نفصل ممارساته عن منطلقاته الفكريّة وبعض من أفكاره التي أوردها. أوجز ما قاله بما يأتي:

– سياستنا هي سياسة الانفتاح والاتزان والاعتدال دوليّاً وعربيّاً.

– ليس في المؤتمرات حرج إن كان هنالك حقّ.

– السياسة العربيّة وسياستنا الداخليّة مرتبطتان بعضها ببعض.

– السياسة ليست استغفالاً للآخرين، بل بساطة وقدرة على وصل الهدف بأقرب السبل.

– من غير المعقول، لا بل من المستحيل، أن يكون للشعب الفلسطينيّ دولة، ويبقى خارجها مئات الألوف من هذا الشعب، بأيّة صفة كان، تحول دون عودتهم حدودٌ إسرائيليّةٌ مهما كان عمقها، ومن

ثمّ يصبح من الطبيعيّ أن تنهار الحواجز التي قد تفصل بين الدولة الفلسطينيّة والقسم المتروك من الشعب الفلسطينيّ خارجها، وعلى مرمى نظرة منها، وبذلك يبدو عدم التوطين ليس رغبة لبنانيّة أو فلسطينيّة وحسب، بل من حتميّات المستقبل. (ص/١٦٩)

شارل حلو السياسيّ، وفي الوقت نفسه شارل حلو الصحافيّ والمحلّل السياسيّ والمحامي وشريك حياة نينا طراد – وأذكر هذه الصفات ليس للتعداد – إنّما هي بمجموعها شكّلت رئيساً للجمهوريّة اللبنانيّة؛ وهذا ما عبّر عنه بقوله: (أؤمن، بصدق، أنّ ارتقائي إلى رئاسة الجمهوريّة اللبنانيّة، يفسّره فقط، تلاحق بعض الظروف المتاحة، والذي كنتُ الرجلَ الذي لبّاها بجدارة) (ص/١٦٤)

شارل حلو لم يكن قدريّاً تواكليّاً، بل هي الظروف المتاحة، ومنها نظرته في العلاقات السياسيّة الخارجيّة والداخليّة التي لا أراها بعيدة عن تشكيله الذهنيّ السياسيّ، الذي تكوّن من مرافقته لقطب في الفكر السياسيّ في لبنان، والذي يُرجع إلى ومضاته الفكريّة في كلّ آن، دون أن يكون لها انعكاس في الممارسة السياسيّة، وحسبي أن أعيد إلى الأذهان ما أسرّه ميشال شيحا لربيبه الفكريّ شارل حلو إذ ينقل إلينا: (كنّا مع الاستقلال، إذ من الطبيعيّ أن نكون مع الحريّة والكرامة، نحن نذود دائماً عن هذه القيم، لأنّها تمثّل بالنسبة إلينا الأهداف نفسها، ولكنّ استقلالنا مدرج في حركة شاملة لتحرير الشعوب، فهل بمقدورنا أن نبقى في آسيا استثناءً موقّتاً مثل الوكالات التجاريّة الفرنسيّة في الهند) (ص/ ٨٥)

وإن كان ميشال شيحا أستاذه فكريّاً، فإنّ الرئيس بشارة الخوري أستاذه في الممارسة السياسيّة المنفتحة، والتي يعبّر عنها رأيه في القائد السياسيّ بشارة الخوري: (الفطنة من أجمل مزاياه، أتاحت له أن يقيم تلاحماً عجيباً بين نوّاب الكتلة الدستوريّة، رغم انتمائهم إلى مناطق مختلفة، حتّى لَيُظنّ بأنّهم أفرادُ عائلةٍ واحدة) (ص/٧٧)

لم يتسنّ لي الاطلاع على مواقفه الصحفيّة والقضايا التي وقف فيها أمام القضاء. ولكنْ، ما ذكر في كتابه يكفيني أن أضيف المحاماة والصحافة إلى ميشال شيحا والرئيس بشارة الخوري، بحيث تتقوّم شخصيّة شارل حلو السياسيّة من خلال هذا الرباعيّ الكريم، فهو إلى جانب يقول: (الصحافة قادت إلى تحمّل مسؤوليّات، ولكنّ الوزن والتقدير كان بسبب المحاماة أيضاً) (ص/٨٩) وتوضيحاً لتلازم هذين العاملين يقول عنهما: (كلٌّ يذود، بطريقة مختلفة عن القيم نفسها، ورسالة كلّ منهما إطلاع الرأي العام على أحداث قد يضرّ جهلها بالمجتمع، وهما معاً، في خدمة الحقيقة) (ص/٩٣)

ويضيف: (هكذا كانا، وهكذا يجب أن يستمرّا، وهذا ما أدركه وأعيه، فهل لي أن أزهو بأنّي كنت، في آن معاً، صحافيّاً ومحامياً)؟ (ص/ ٩٣)

باعتقادي، إنّي أوجزتُ صورة شارل حلو رجل الانفتاح والاعتدال، إذ لا يزال الكثير ممّا يقال. ولكنّي لا أستطيع أن أبرزه إلاّ من خلال مكوّناته الثقافيّة والنفسيّة ومقوّماته الشخصيّة، مترسّمةً ذكرياتِه، وربّما استطعت أن أضع الخطوط العريضة، ولكنّي عجزت عن المتابعة، إذ وجدتني قادرة على رسم خطوطه ابناً وطالباً وصحفيّاً ومحامياً

وسياسيّاً ودبلوماسيّاً، والذي وقف بعناد أمام أقواس المحاكم في الفترة القاتمة كما يسمّي فترة الانتداب (ص/١٠٥)، ليدافع عن أهله. وكان المفروض أن أقف طويلاً عند نينا طراد، ولكنّه أعجزني وأخرسني، وهو يحدّد قضاياه التي وضعتها الحياة بين يديه، إذ يقول، (وكانت محكمة الحياة تضع بين يدَيّ قضيّتين ثمينتين جدّاً: قضيّة بلدي لبنان، وقضيّة فتاة اسمها نينا طراد) (ص/ ١٠٦)

إذاً، يمكن تلازم قضيّة الوطن وقضيّة إنسان يحمل همّ هذا الوطن، وبالتّالي المفروض أن يكون تلازم بين كلّ أصحاب الهمّ الواحد.

وفي كتاب ذكريات الرئيس حلو صورةٌ هي الأكثر تعبيراً عن ممارسة الهمّ المشترك، وهي الوحيدةُ بين الصور الخارجة عن نطاق الرسميّات وقواعدها.

صورةٌ تجمع بين مؤسّس مطاعم الفقراء الرئيس حلو، ومؤسّس حركة المحرومين الإمام السّيد موسى الصدر وبينهما فتاة مفجوعة؛ قالت الصحف حينها إنّها أوقفتهما على باب المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى ليبحثا لها عن مصير شقيقها المخطوف، وأنّ الرئيس حلو قد انهمرت دموعه تأثّراً وانصرف الإمام لإجراء سلسلة اتصالات لمعرفة مصير المخطوف.

الرئيس حلو بكى. رئيس البلاد بكى. رئيس الناس بكى. رئيس الفقراء بكى، لشخصٍ مواطنٍ ولمواطنيّتِه، له حقٌّ على الوطن.

الرئيس حلو بكى على نفسه، قبل أن يبكي على مواطنه المظلوم، شأنُه في هذا شأنُ المسؤولين الحقيقيين الذين لا يزال التاريخ يتوجّع

لوجعهم على عذابات الناس، شأنُه في هذا شأنُ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، حين يقرّب وجهَه من نار الموقد وهو يخبز لأرملة وأيتامها وهو يبكي ويقول: ذق يا أبا الحسن، هذا جزاء من يضيّع الأيتام.

لم يقل أحدٌ حينما كانت أرملة تبكي في أسواق الكوفة لجوع أطفالها بأنّها تعرقل شؤون الدولة، كما لم يقل أحد إنّ وقوف شقيقة المخطوف أمام الرئيس حلو والإمام الصدر لمعرفة مصير شقيقها بأنّها تدمّر جهودَ نهوض الوطن.

فقليلاً من الحياء، قليلاً من الخجل أيّتها الأبواق! أمّا مطلبُنا من آخرين فعدمُ تجميد القضاء اللبنانيّ أمام ملفّ قضيّة الإمام الصدر!!

الرئيس حلو، في ردّ على ترحيب الإمام الصدر له وعند استماعه للطروحات، قال (التجاوب خير من الجواب). ومطلبنا هو التجاوب؛ ونحن سائرون، بمن مشى، بمن قام. لوحدنا سائرون، وفي ذاكرتنا أنّ جهود الإمام السيّد موسى الصدر أنتجت مؤتمرَي قمّة لخلاص لبنان: مؤتمر الرياض ومؤتمر القاهرة. إنّ جهوده أذابت كلّ جليد بين رؤساء، ووصل ما هو مقطوع بين قيادات حتّى يُعقدَ مؤتمرُ قمّة من أجل لبنان. نعرف هذا، ونتذكّر جيّداً هذا، وصار جزءاً من اهتمامنا وسيرنا هذا، ولن نوفّر جهداً لهذا، ولكن... لن يكون المجرم سيّد الدار المدلّل.

فإنّ محكمة الحياة وضعت بين يدينا قضيّتين ثمينتين جدّاً: قضيّة بلدنا لبنان، وقضيّة الإمام الصدر ورفيقيه، وندرك كلّ الادراك كيف نوازن قضايانا لتكون كلّها قضيّة لبنان.

الجلسة الثانية

الموضوع شارل حلو السياسيّ

الرئيس الرئيس السيّد حسين الحسيني

المتكلّمون

الأستاذ غسّان تويني	رجل الحريّات
د. الكسندر نجّار	الفرنكفونيّ بامتياز
الأستاذ منح الصلح	المفكّر


جامعة سيدة اللويزة
الذكرى السنوية الاولى لغياب
فخامة الرئيس شارل حلو

كان سهلاً. ولكنْ حذارِ...

يقول شارل حلو في مذكّراته:

"طالما ذكّرتُ بحكمةِ ذاك المعلّم الذي كانَ، بعد قيامه بشرحٍ وافٍ على اللوح الأسود، يقول: هاكم. إنّه لكذلك".

ثمّ بعد وقفةٍ قصيرةٍ كان يضيف: "إلاّ إذا كان عكسَ ذلك".

قد تكون هذه الحكمةُ التي يذكر شارل حلو أنّه قد تبنّاها، لا في تأمّلاته في حياته السياسيّة فحسب، بل في حياته السياسيّة نفسها أيضاً، دالّةً على صحّة النقد الذي كان يُوجَّه إليه، بالقول بأنّه ضعيف، متردّد.

يقول شارل حلو: "هذا ممكن".

ثمّ يضيف: "إلاّ إذا كان العكس"، عملاً بتلك الحكمة.

من الواضح أنّ السياسيَّ أو المؤرّخَ لا يمكن أن يرضى بهذه النتيجة. فلا بدّ له من تقديرٍ أقربَ إلى الاحتمال.

لا يُعدَمُ شارل حلو جواباً عن هذا، فهو يختمُ هذه المسألةَ بقولِه: "اللّه أعلم".

أجدُني هنا منساقاً، بالمشابهة، إلى ذكر هذه الحكاية:

يُحكى أنّ قاضياً قد جلس ينظرُ في خصومةٍ بين رجلين، وقد جلس إلى جانبه كاتبه. قام الرجلُ الأوّلُ فأدلى بادّعائه. ثمّ قام الرجلُ الثاني فأدلى بردِّه. وكان الكاتبُ يدوّنُ ما يسمعُ بما ينبغي من أمانةٍ ودقّة. أعاد القاضي النظرَ في ما دوَّنه كاتبه. واستعدَّ لتلاوةِ الحكم. فتوجَّه إلى الرجل الأوّل وقال له: "إنّك على حق". وقبل أن يتيسّر لهذا الرجلِ أن يدخل في فرح النتيجة، كان القاضي يقولُ متوجّهاً إلى الرجل الثاني: "إنّك على حق". لكنّ الكاتبَ الذي كان يدوّنُ ما يسمعُ أسرعَ يهمسُ في أذن القاضي أنّ كلام الرجلِ الثاني كان يناقضُ كلامَ الرجلِ الأوّل، فلا يمكنُ أن يكونا معاً على حقّ، حفظاً لسلامة العقل. لم يكن القاضي أقلّ سرعةً في التجاوب مع كاتبه فقال له: "وأنت أيضاً، لا شكَّ، في أنّك على حق".

الحكايةُ تتوقّف هنا، ولا تُضيفُ شيئاً في ما يتعلّقُ بما صارت إليه تلك الخصومة. ولا نعلمُ شيئاً سوى هذا اللاحكم.

هل هذا ما يدعونا إليه شارل حلو عندما أورد حكاية المعلّم؟

لا أظنّ.

لم يكن شارل حلو، في حياته السياسيّة، محبّذاً للمباسطةِ في حقيقة أعماله السياسيّة، من حيثُ أهدافُه المباشرة، وإنْ كان لا يبخَلُ في إيضاح مبادئها العامّة، بل يفيضُ بذكرها بدءاً وإعادةً.

وعلى هذا، فالذي أمامَنا لم يكنِ التردّدَ والضَعفَ، بل التصرّفُ الذي يتأنّى في إبقاء تأويلِهِ مفتوحاً لقبول المعاني المتعدّدةِ، بل المتباينة. وإذا

كان من ضَعفٍ وتردّدٍ، فعلى المؤرِّخ، قبل الانتهاء إلى ذلك التقدير، أن يحذرَ من إغفال عواملِ الضَعفِ التردّدِ، بلِ التناقضِ، لا في شخص شارل حلو، بل في أوضاعِ لبنانَ الدولةِ والمجتمع، وفي أوضاعِ المنطقة العربيّة، في تلك الفترة، أعني فترة تولّيه رئاسةَ الجمهوريّة.

شخصيّاً، لا أرى أنّ شارل حلو كان شخصاً ضعيفاً، متردّداً.

قد توافقه في ما يفعل وقد تعارضه.

ليس من الصعب أن توافقه في ما يقدِّم، فقد كان أنيقاً ملاطفاً في عرض أسبابِه وتفسيراتِه.

ولكن، كان من الصعب دوماً أن تحدّد بدقةٍ ما يرمي إليه، في ما يتعدّى الظاهر.

كان سهلاً.

ولكن، حذارِ، فقد كان الممتنعَ، أيضاً.

شارل حلو الصحافيّ

"الزمن نهر هادر، والتواريخ سدود. ومحطّات الزمن من صنع اللّه، أمّا التاريخ فمن صنع البشر (...)

"لا بداية ولا نهاية في هذا العالم، فكلّ شيء فيه بداية جديدة، حتّى النهاية. وما من غياب إلاّ لحضور آخر، على حدّ تعبير شاعرنا أنسي الحاج.

أمضينا القرن الماضي في تكرار محاولات التأسيس، وقد حان الوقت لتجديد معنى لبنان (...) استهلكنا في عشرات السنوات نظريّات وفلسفات فكريّة عديدة. بدأنا بلبنان الملجأ، ثمّ لبنان الجسر بين الشرق والغرب، ولبنان التفاعل بين الأديان وحامل رسالة العيش المشترك الإسلاميّ المسيحيّ، وانتهينا بأنّه أكبر من وطن. إنّه رسالة.

واستنفدنا أيضاً سنوات القرن بالسؤال عن الهويّة وصراع القوميّات اللبنانيّة والسوريّة والعربيّة.

تدرّج لبنان (...) من وطن إلى ساحة ثمّ إلى ورقة.

فهل نحن مؤهّلون لإعادته إلى مرتبة الوطن كي لا نستمرّ رجالاً يمشون في المستقبل إلى الوراء؟

وُلد لنا – من قيم الحريّة والسلام والكرامة – وطنٌ، كان خلال القرون الماضية ذا مساحة متبدّلة. لكنّه قائم أبداً على تخوم الحريّة.

فكلّ قرن، وحدود لبنان وحريّته بخير".

أيّها السادة،

هذا الكلام من شارل الحلو الصحافيّ. مقتبس من أحد آخر افتتاحياتّه في "النهار"، استقبل بها العام ٢٠٠٠.

لم أجد أفضل من هذا الكلام استهلالاً لمداخلتي عن شارل حلو الصحافيّ.

شارل حلو الأبداً صحافيّ: الذي بدأ صحافياً في العشرين من عمره، يتألّق في الرابعة والعشرين عند تولّيه مسؤوليّة "له جور"، ثمّ انتقل إلى الدبلوماسيّة فالنيابة فالوزارة فرئاسة الجمهوريّة (التي لم تمنعه من الكتابة سرّاً) ليعود يكتب بعد انتهاء ولايته المقال تلو المقال في "النهار" و"الأوريان–له جور"، مدافعاً لا عن ممارسته السياسيّة، بل عن القيم التي صُنع منها لبنان، قيم الحريّة والكرامة والسيادة. حتّى لغة بياناته الرئاسيّة، بل تصريحاته إلى الصحفيين، كنّا نلمس فيها النفحة المهنيّة، وسرّ الاحتراف الذي يدركه واحدنا عندما يقارن بين النص المكتوب من الرئيس، والنص المكتوب لرئيسٍ بناءً على طلب أو توصية.

هكذا كان شارل حلو، الصحافيّ الذي يستقطر لقلمه حبراً من مخزون الضمير والإيمان، ومن المناهل الفكريّة والأدبيّة التي تتجاوز بمهنتنا اليوميّات الباليات إلى مراتب المشاركة في صناعة التعاقد الوطنيّ

وضمان استقلال الوطن والمواطنين. الأمر الذي يعني، بالدرجة الأولى، ضمان حريّة المواطن العمليّة، والتزامه دستور الحياة، أي القانون العضويّ المكرّس في الدستور المكتوب.

ألم يقل شارل حلو في مذكّراته: "الجريدة بالنسبة إليّ مكان التقاء ثقافيّ رفيع، ومركز إشعاع وتعبئة وإبراز للمواهب المتعدّدة".

هكذا كان، وهكذا ذهب شارل حلو، آخر عمالقة رعيل صحافيي الاستقلال والدستور الذين شاركوا في حكم لبنان، من شارل دبّاس مروراً بخير الدين الأحدب وموسى نمّور، وكميل نمر شمعون وميشال زكّور، وجبران تويني وحميد فرنجية وجورج نقّاش ورياض الصلح، وصولاً إلى شارل حلو. وليس صدفةً أنّهم كانوا جميعاً، كلّ واحد في الحقل الذي تولّى، من خيرة الحكّام، أو المشاركين في الحكم. ففي بنية الصحافيّ الذهنيّة والنفسيّة، وفي قواعد تصرّفه، هذا الالتزام بالخلق المكتمل يوميّاً، وبالتوق إلى إبداع مرتبط باستحقاقين: الانجاز في الوقت المحدّد، والتجاوب مع الناس من دون إكراه أو افتراض احتمال اكراه. ثمّ إنّ هؤلاء ورثة الشهداء من الآباء الذين ساروا، عامي ١٩١٥ و١٩١٦، إلى المشانق المنصوبة في معظمها على ساحة البرج، فطوّبت لهم، لا لسواهم، ساحة للشهادة واستمرّت.

كيف إذاً لا يستوحي شارل حلو إرثهم؟... وكانت مكاتب "له جور"، أيّام تولّيه رئاسة تحريرها، تطلّ على الساحة، قبل أن تهدّم الساحة ورموزها المنظورة وغير المنظورة حروب الآخرين المجنونة، مستهدفة إلغاء وحدتنا حتّى في الشهادة المتوحّدة للاستقلال.

ولطلاّب التاريخ في الجامعة التي تستضيفنا الآن، لا بأس من استذكار أسماء الشهداء التي تمحوها الأيّام وصانعوها من ذاكرتنا الوطنيّة. ففي الأسماء رسالة، بل رسائل لمن يفقهون، وقد كانت كثرة الشهداء من الصحافيين والكتّاب والمفكّرين:

– عبد الكريم الخليل، صالح حيدر، محمود المحمصاني، محمّد المحمصاني، عبد القادر الخرسا، عبد الغني العريسي، سعيد فاضل عقل، باترو باولي، الشيخ أحمد حسن طبّارة، محمود العجم، جرجي الحدّاد، نور الدين القاضي، يوسف الهاني، عمر حمد، توفيق البساط، الأمير عارف الشهابي، الشيخ فيليب الخازن، الشيخ فريد الخازن، عبد الوهّاب الانكليزيّ، رفيق رزق سلّوم، نخلة باشا المطران، الخوري يوسف الحايك، الشيخ عبد اللّه الضاهر، مسعود الهلّيل، أنطوان زريق، توفيق زريق، المطران بطرس شبلي.

وكان رياض الصلح، خليل مطران، شبلي الشميّل، الشيخ يوسف الخازن، داود بركات، فارس نمر، قسطنطين ينّي، وخليل تابت قد حُكموا بالاعدام، ولكنْ لم يتسنّ للأتراك تنفيذ الأحكام قبل سقوط الامبراطوريّة.

أيّها السادة،

ذهب هؤلاء إلى رحمة ربّهم، وهم يردّدون "يا أرض الوطن احفظي تذكارنا. عشنا لأجل الاستقلال ونموت في سبيله... مرحباً بالموت في سبيل الوطن الحر".

فهل نتذكّر؟ هل نحفظ الرسالة؟

في هذا السياق بالذات، أجدني أتساءل عمّا إذا لم يكن ثمّة شيء من قَدَرٍ ما في أن يكون شارل حلو قد انطلق في الصحافة، وهو بعد طالب حقوق في الواحدة والعشرين، انطلق من مدينة حلب، شهباء بلاد الشام، التي كان قد أسّس فيها عبد الرحمن الكواكبي، أحد أعلام النهضة العربيّة في القرن السابق، جريدة سمّاها "الشهباء". ولم يحتمل السلطان العثماني صدورها أكثر من يوم واحد، فأمر بمصادرتها ومنع استمرارها.

والكواكبي – أقولها لمن في الجيل الطالع تغرّب عن تراث حريّاتنا وفلسفتها – الكواكبي هو صاحب كتاب "طبائع الاستبداد" (فكيف يأمن السلاطين إلى وجوده؟). ومنه هذا القول المأثور، والذي غدا بنداً في كلّ دستور إيمان ديمقراطيّ، قال: "ما من حكومة تأمن المؤاخذة بسبب من أسباب غفلة الأمّة، إلاّ وتسارع إلى التلبّس بصفة الاستبداد. وبعد أن تتمكّن فيه، لا تتركه وفي خدمتها شيء من القوّتين المهولتين: جهالة الأمّة والجنود المنظّمة".

مكافحة "جهالة الأمّة" هي، في النهاية، رسالة الصحافة، في وجهها السلبيّ. أمّا الوجه الايجابيّ، فأن تزرع في نفسيّة الأمّة، لا مجرّد الإيمان بالحريّة، بل ممارستها، وأن تجعل من هذه الممارسة دستوراً ملزماً ولو غير مكتوب.

الدستوريّة، أيّها السادة، هي الكلمة المفتاح في تاريخ شارل حلو الصحفيّ، وقد لازمته في مسؤوليّاته السياسيّة، وصولاً إلى المرتبة الأسمى، رئاسة الجمهوريّة.

فجريدة "له جور" تأسّست، عام ١٩٣٤، في وجه "الأوريان" الأقدم منها والتي كانت على شيء من الموالاة، إن لم نقل للسلطة الفرنسيّة المنتدبة، فعلى الأقلّ للحزبيّة اللبنانيّة الحاكمة المتمثّلة بالرئيس إميل إدّه. وكانت تقابل، ولنقل تواجه هذه الحزبيّة معارضة متمثّلة برلمانيّاً وشعبيّاً بالشيخ بشارة الخوري ورفاقه.

وَلْنعترفْ هنا أنّ الحياة الديمقراطيّة آنذاك، في إطار الحزبيّتين اللتين تحوّلتا إلى كتلتين، كانت، على صخبها، أكثر استقامةً ممّا هي هذه الأيّام. ومردّ ذلك إلى الثنائيّة الحزبيّة أوّلاً، إنّما، أبعد من ذلك، إلى وجود تنوّع طائفيّ شامل في الكتلتين، واتصال الكتلتين بصحافةٍ كانت منبراً حرّاً لهذه وتلك، من غير التزام حزبيّ ضيّق لا هنا ولا هناك.

هكذا كان شارل حلو وهو في الرابعة والعشرين، في المجموعة الأولى التي أطلقت "له جور" بقيادة الكاتب شارل عمّون الذي انتُخب فيما بعد نائباً، مُفسحاً المجال لشارل حلو حتّى يصبح رئيساً للتحرير ومديراً عامّاً وهو بعد دون الثلاثين. ومع "له جور"، "نهار" جبران تويني، و"معرض" ميشال زكّور السابقين لها، تكوكبت دعائم المجموعة وتأسّست "الكتلة الدستوريّة".

وقد اختارت اسمها لأنّ جوهر تكوينها كان الدفاع عن الدستور الذي كان المفوّض السامي الفرنسيّ قد أصدر قراراً بتعليق العمل به. غير أنّ تطلّع الكتلة لم يكن يتوقّف عند التمسّك بدستور ١٩٢٦، الذي

مارس الدور الأكبر في صياغته ملهمها الفكريّ ميشال شيحا، بل ذهبت الكتلة في برنامجها إلى المطالبة بالاستقلال التامّ الناجز.

أيّها السادة،

يضيق بنا المجال لمناقشة افتتاحيّات شارل حلو، في الحقبة الممتدّة من تولّيه رئاسة التحرير حتّى توقّفه عام ١٩٤٦ عند تعيينه وزيراً مفوّضاً للبنان المستقلّ لدى حاضرة الفاتيكان. وقد شرح الرئيس، في مذكّراته، بإسهاب، تطوّر ممارسته، وكيف كان يحرّر أبواب الجريدة ويستقطب كتّابها ومحرّريها ويوجّه سياستها.

حسبنا من المذكّرات خلاصة لتوجّه الجريدة بصورة عامّة:

إيجابيّاً: تأكيد حقّ لبنان بالاستقلال، انضمام لبنان إلى جمعيّة الأمم على أساس المساواة الكاملة مع باقي الدول، إبرام معاهدة مع فرنسا تكون بديلة للانتداب وتحديد واجبات الدولتين الفرنسيّة واللبنانيّة وحقوقهما تحديداً دقيقاً.

أمّا في السياسة الخارجيّة، فقد عرفت "له جور" بتصدّيها للمغامرات الاستعماريّة، مع تأييدها لفرنسا وبريطانيا ضدّ ألمانيا. هكذا كانت تنبّه باستمرار إلى الخطر الصهيونيّ وما سيرتّبه قيامُ دولة يهوديّة من مخاطرَ على النظام العالميّ، فضلاً عن معارضتها لحرب إيطاليا ضدّ الحبشة، مثلاً، وتأييدها لحركات التحرّر في الهند وكلّ آسيا، وبنوعٍ أخصّ في المغرب العربيّ.

وإذا أردنا، كما هي الموضة المتّبعة أحياناً، اختيار عبارة تمثّل، ولو لم تختصر، مواقف شارل حلو الافتتاحيّة في تلك الحقبة، لقلنا معه: "نحن مكرّسون إمّا لنناقش مشاكلنا في مجلس النّواب، وإما لنتقاتل في الشارع".

وليس أدلّ على صوابيّة هذه القراءة الدستوريّة من الحروب التي بدأت تتهيّأ في عهد شارل حلو في الرئاسة، بسببٍ من رفض البعض العودة بخلافاتهم إلى مجلس النّواب، أو بتضخيمهم الخلافات إلى حدٍ تفجّرت معه المؤسّسات، ناهيك عن الذين ظنّوا أنّ استغناء الحكم عن المجلس النيابيّ، وأن انتقاله إلى ما كان يعرف مذ ذاك بالأجهزة، إنّما هو للطريق القويم إلى الاستقرار والسلام.

أمّا الخلاصة "السلبيّة" الاتجاه في مواقف "له جور"، فتصفها المذكّرات حرفيّاً هكذا: "هجومات يوميّة، انتقادات، مزاحات، اكتشاف طرق جديدة للازعاج". ويستطرد الرئيس قائلاً: "كنّا نصطدم بالصحافة التي تقف على جانب رجال الحكم وخصوصاً بالصحفيّ جورج نقاش، المخيف والعبقريّ، وأحد أفضل المناظرين باللغة الفرنسيّة في لبنان وفي فرنسا أيضا".

هنا، **ثلاث ملاحظات** لا بدّ منها:

أوّلاً: إنّ أسلوب شارل حلو ظلّ يتميّز عن "مناظره" جورج نقّاش بالهدوء في وجه الصخب، والتحليل المبادئيّ في وجه التعنيف اللغويّ، والنكهة الأدبيّة العريقة في وجه الاستحداث في الانشاء القارص.

ثانياً: إنّ الخصام السياسيّ لم يعطّل، رغم بعض القساوات اللغويّة، احتراماً مهنيّاً متبادلاً يصحّ وصفه بالروح الرياضيّة، ممّا جعل "له جور" ترحّب بعرض حمله إليها "منافسنا العنيد الرهيب" جورج نقّاش بإصدار الجريدتين في زيّ جريدة واحدة تحمل الاسمين معاً (كما الآن!) و"بتحرير موحّد" طيلة مدّة إضراب عمّال مطابع الأوريان.

ويستطرد شارل حلو في رواية الحدث، فيقول إنّ الأمر انتهى بتأسيس "الكتائب اللبنانيّة" عبر التعاون في "بلورة مشروع تنظيم الشبيبة بقيادة هيئة مشتركة من الكتلتين المتنافستين والمتناحرتين". وانتهى الأمر، كما بات معلوماً، بخروج جورج نقّاش وشارل حلو بعد حين من الكتائب التي استمرّت بقيادة الشيخ بيار الجميّل. ولم يبخل عليها لا جورج نقاش ولا شارل حلو بسهام النقد العنيف في أكثر من ظرف.

ثالثاً: بعد تولّي شارل حلو وزارة العدل والأنباء عام ١٩٤٨، بادر النائب العام، بدون علم الوزير، إلى ملاحقة "الأوريان" وإصدار مذكّرة بتوقيف جورج نقّاش لكتابته مقالاً ضدّ وزير الخارجيّة. ونشأت أزمة وزاريّة انتهت ببقاء الوزير الصحافيّ مستقيلاً، والصحافيّ الآخر جورج نقّاش خارج السجن... إنّما إلى أجل.

أيّها السادة،

الصحافيّ يهوى الحكاية، خصوصاً الظريفة منها، بديلاً عن مقال أو بحث طويل يتعذّر كتابته وقد تتعذّر تلاوته.

ألم ينمُ عهد الرئيس شارل حلو، الذي كان يطيب لي كصحافيّ وصفه بالعهد الحلو، على مرارته للرئيس وللصحافة... ألم ينمُ هذا العهد،

يظلّله رسم كاريكاتوريّ، بريشة بيار صادق، لشارل حلو في زيّ راهب يسوعيّ عابس حيناً قليلاً، وضاحك أحياناً كثيرة؟

ومع ذلك، لم يلاحق الرئيس، الصحافيّ أبداً، لا "النهار"، ولا بيار صادق، ولا غسّان تويني أو سواه. بل على العكس، استمرّ – وهنا أبوح بسرّ غير مجهول من العارفين – استمرّ الرئيس يكتب بعض المقالات غير الموقّعة ويرسلها للنشر "اللّه أعلم كيف" وتنشر بدون علم رئاسة التحرير.

حكاية أخرى معروفة من الكثيرين لأنّه سبق ونُشرت وكأنها حكايتان، إنّما هي واحدة، تدلّ على عبقريّة صحافيّة لدى الرئيس الحلو في اعتماد التورية لقول أشدّ الحقائق إيلاماً وأكثر النقد تجريحاً:

تبدأ الحكاية في خاتمة أحد مؤتمرات القمّة العربيّة. الملوك والرؤساء الخ... يستأذنون رئيس لبنان ليشكوا إليه همّهم من انتقادات الصحافة اللبنانيّة لهم.

جواب الرئيس: سبقتموني. كنت أنوي أنا أن أطلب إلى كلّ واحد منكم أن يمنع الصحف اللبنانيّة الناطقة باسمه من مهاجمتي شخصيّاً، بل من التجريح بمقام رئاسة الجمهوريّة.

سؤال: ما العمل؟

جواب الرئيس: هدنة بين الحكّام العرب، فلا يتناظرون في لبنان وعبر صحافته، على حساب الحكم اللبنانيّ.

ليس هنا مجال تحليل أبعاد هذه الحكاية، فأنتم بغنى عن ذلك.

أكتفي بالرواية، وبالاستطراد منها إلى الحكاية الثانية:

عند عودة الرئيس الحلو إلى بعبدا أو سن الفيل لا أذكر، قام مجلس نقابة الصحافة بالزيارة التقليديّة، وإذا بالرئيس يستقبل زملاءه السابقين اللاحقين بهذه العبارة، ردّدها ضاحكاً:

"أهلاً وسهلاً بكم في وطنكم الثاني لبنان".

وبكثير من المرح، ولا عتاب، روى لهم، وكأنّها نكتة، مجرّد نكتة، ولا لؤم، قصّته مع الحكّام العرب!

انتهت الحكاية. ولا تعليق!

أيّها السادة،

تجاوزت، ولا ريب، المجال المخصّص لي.

حسبي أن أقول ختاماً إنّ شارل حلو الصحافيّ الذي استمرّ صحافيّاً هو كاتب المقال الذي استهلّيت به حديثي، أكثر منه شارل حلو صاحب حكاية القمّة.

حكاية القمة أردتُ منها تشخيص المرض اللبنانيّ.

المقال الاطلاليّ أردتُ به تسجيل دستور الايمان بلبنان وبالانسان في لبنان.

وما بين الاثنين، المقال والحكاية، تبقى شخصيّة الرئيس متمثّلةً في الصورة المأسويّة التاريخيّة: صورة عذاب الحكم إلى حدّ الكفر فالاستقالة... فالتغلّب على ضيق الصدر بمحاولة الطغيان على شخص الرئيس، فثار.

شارل حلو، الفرنكوفونيّ بامتياز

تُعاوِدُني الوحشةُ في ذكرى ارتحالِ الصديقِ الغالي، الرئيس شارل حلو. فعلى رُغمِ الفارقِ الكبيرِ في العُمر (حوالى نصف قرنٍ)، كانت تربطنا صداقة متينةٌ، بدأت خلال العام ١٩٨٩، حين أرسلتُ إليه أوَّلَ كتاب ألّفتُه بالفرنسيَّة تحتَ عنوان La Honte du survivant؛ وقد فاجأني الرئيس حلو آنذاك بمقالةٍ حول هذا الكتاب أرسلَها إلى صحيفةِ L'Orient le Jour، شجَّعني فيها على المُثابَرةِ على الكتابةِ إلى جانبِ دراستي الحقوق. والرئيس حلو لم ينسَ أبداً هذا الشابَ المبتدئَ الذي أرسلَ إليه كتابَه الأوّل، وبقيَ، حتّى النهايةِ، يسهَرُ عليهِ ويتابِعُ أعمالَه عن كَثَب. فَنشَرَ في الصّحُفِ مقالاتٍ حول مؤلّفاتي، وأرسَلَ إليَّ عدة رسائِلَ كان آخرها في ٢٠ تشرين الأوّل ٢٠٠٠، أي قبلَ وفاته ببضعةِ أيّام، يَحثُّني فيها على عَدَمِ التخلّي عن الكتابةِ وعلى الدفاعِ عن الفرنكُوفونيّة، التي كان يعتَبِرُها أفضلَ فُسحَةٍ لحوارِ الثقافات، وَهو، تحديداً، مِحوَرُ القِمَّةِ الفرنكوفونيّة التي ستُقام، خلالَ شهر تشرين الأوّل المقبلِ في بيروت.

بينَ شارل حلو والفرنكوفونيّة قصّةُ حبٍّ طويلةٌ، بدأت عندما كان تلميذاً في المدرسةِ اليسوعيّة، وتوطّدت حين أصبحَ طالباً في

جامِعَتِها، وعند احتِرَافهِ الصَّحافة، واستمرَّت بعد تولِّيه الرئاسةَ الأولى وحتَّى رَمَقِه الأخير. بينَ شارل حلو والفرنكوفونيّة قصّةُ حُبٍّ لم تَكُنْ وليدةَ الصُّدَف. فاللغة الفرنسيّة لم تَكُن، في نظَرهِ، لغةً كَسَائرِ اللّغَات.

اللغةُ الفرنسيَّةُ، في نظَر شارل حلو، هي لُغَةُ الحُرّيّةِ، لغةُ الثّورةِ الفرنسيّة التي مَنَحَتِ العالمَ مبادئَ حقوقِ الإنسانِ التي ناضَل من أجلِها الرئيس حلو طَوالَ حَياتهِ، فاسْتَمَرَّ في مُعارَضَتهِ لعقوبةِ الإعدام، مُعْتَبِراً أنّها مناقضةٌ للقِيَمِ التي كانَ يؤمِنُ بِها.

وأذْكُر، في هذا السياقِ، أنّ آخِرَ كتابِ أهدَيتُه إليهِ كان كِتاباً عن عقوبةِ الإعدامِ لوزيرِ العدلِ السابق Robert Badinter الذي ساهمَ في إلغاءِ هذهِ العقوبةِ من القوانينِ الفرنسيّة.

تعلّم شارل حلو اللغةَ الفرنسيّةَ باكراً. ويعودُ الفضلُ في ذلك إلى والدهِ الصَّيدلِيّ الذي كان يُجيدُ هذه اللُّغَةَ بامتياز. ويُقالُ إِنَّهُ أطلَق على ابنه اسم "شارل" بعد أن زارَ باخرةً فرنسيَّةً كان على متنها شخصٌ يحمِلُ هذا الاسم. ويقولُ الرئيس حلو في مذكّراتِه: إنَّ فرنسا، وطنَ الحُرّية، كانَتْ مَحَطَّ آمالِ أبيه الذي عيلَ صَبْرُه من القَهرِ العُثمانِيّ، وكان يَتَمنّى دائِماً أن تتدخّل فرنسا لِتُحَرِّرَ المِنْطَقَة؛ بَيْدَ أنَّ والِدَه تُوفّيَ باكراً، قبل بضعةِ أيّامٍ فقط منَ انهيارِ الأمبراطوريَّةِ العُثمانيّة، فلم يرَ حُلمَهُ يتحقّق.

في السادسةِ من عُمرهِ، التحقَ شارل حلو بجامعةِ القدّيس يوسُف التابعةِ للآباءِ اليَسوعيّين. وفي الصّف الخامس، وفي ظلٍّ رعايةِ أحَدِ الإخوة المريميّين، الأخ فردينان، اكتشفَ أنَّ لديه سهولةً في الكتابة،

فتبوّأ المرتبةَ الأولى في الإنشاءِ باللغةِ الفرنسيَّة، وراح يُخزِّنُ في ذاكرتِهِ أجملَ قصائدِ الشُّعَراءِ الفرنسيّين. واستمرَّ على هذا المنوالِ حتّى وصلَ إلى البكالوريا الفرنسيّة مرشَّحاً لامعاً. ويُقرُّ شارل حلو بأنّهُ كان يميلُ إلى اللغةَ الفرنسيّةِ أكثرَ من العربيّة، بسببِ المُناخِ العَام الذي كان سائِداً آنذاك، وبسببِ مدرستهِ التي كانت تُولي اللغةَ الفرنسيّة الاهتمامَ الأكبر ولا تدرِّسُ بالعربيّة سوى اللغةِ العربيّة. كما يعترفُ شَارل حلو أنَّهُ كانَ للصحافةِ أثرٌ هامٌ في إطلاعهِ على اللغة العربيّة، من خلالِ المقالاتِ التي كانَ ينقلُها إلى الفرنسيَّة عندما كان مَسؤولاً عن مُرَاجَعةِ أقوالِ الصُّحُفِ العربيّة في صحيفة Le Jour. وفي وقتٍ لاحق، كان للشّيخ بشارة الخوري الأثرُ الكبيرُ في تنشئته على العربيّةِ.

بعد نَيْلهِ البكالوريا، التَحَقَ الرئيس حلو بِكليَّةِ الحقوق، وبدأ، في الوقتِ عينهِ، مسيرتَهُ الصُّحُفيّة؛ فَعُيِّن، في التاسعةَ عشرةَ من عُمرهِ، مديرَ تحرير الصحيفةِ الحلبيَّةِ L'Eclair du Nord، قبل أن يُعيَّن مديراً لصحيفةٍ جديدةٍ تصدرُ باللغةَ الفرنسيّة تحتَ عنوان Information كانَتْ تَنطقُ بلسانِ المعارضةِ ضدّ حكم الرئيس شارل دبّاس. وخلال شهر حزيران ١٩٣٤، التحقَ شارل حلو بجريدة "لو جور" وتولّى ترجمة المقالاتِ الصادرة في الصحفِ العربيَّةِ إلى اللغة الفرنسيّة. ويقولُ شارل حلو في مذكّراته: "كان هَدفي، لا دِقّةَ الترجمةِ وصدقَها فقط، بل أن يتضمَّن النصّ الفرنسيّ ما يحتويهِ النصُّ العربيُّ من بَلاغةٍ ومتانةِ سَبكٍ ودُعَابةٍ أحياناً. ولا رَيْبَ أنَّ تلك الترجماتِ التي تستَدعي مطالعةً يوميَّة للصُحفِ علَّمَتْنِي التَّسامُحَ، لأنّي كنت أواجه أراءً ليست آرائي".

وسُرعانَ ما أصبحَ شارل حلو رئيساً لتحرير الجريدة ثمّ مديراً سياسيّاً لها، فَغدا، في الحادِيةِ والعشرينَ من عمرهِ، صحافيّاً عتيقاً، وعُنصراً أساسيّاً في صحيفةٍ اعتُبِرَتْ، حتّى قبلَ دمجها مع جريدة L'Orient، من أفْضَلِ الصُّحُفِ الفرنكوفونيّة في المشرق. ويذكر الرئيس حلو أنّ زميلَه الكبير الأستاذ جبران تويني أرسلَ إليه ذاتَ يوم ابنَهُ غسّان الذي أَطْلَعَهُ على قصائِدَ نظَمَها باللغة الفرنسيّة، فَشجَّعَهُ شارل حلو على إنضاجِ موهبتِه. ويقولُ شارل حلو: "لو عَمِلَ غسّان، في ذلك اليوم، بنصيحَتي، لكان لبنانُ ينعمُ الآن بشاعرٍ كبيرٍ عظيم، ولكنَّهُ كان خَسِرَ صحافيّاً لامعاً ورجُلَ دولة من الطراز الأوّل"!

ويذكر الرئيس شارل حلو أيضاً أنه نشَر في صحيفة Le Jour، قبلَ الحربِ ببضعِ سنواتٍ، روايةً تمثيليّة من فصلٍ واحد للشاعر الفرنكوفونيّ الكبير جورج شحاده. وكان اسمُه، آنذاك، لا يتعدّى حلقةً من بعضِ الأصدقاء. كما يذكرُ أنه شاركَ في لجنةِ تحكيمٍ مَنَحَتْ جائزةً لشابٍّ يُدعى صلاح ستيتيّه أصبَح فيما بعد شاعِراً فرنكوفونياً معروفاً.

وهَكذا، نَرى شارل حلو مُشَجِّعاً للمواهِبِ الفرنكوفُونيّة الناشِئة، وعاشِقاً للغةٍ علَّمَتْهُ الصحافةُ احترامَها. ولعلَّ الشخصيّة التي تركَتِ الأثرَ الأكبرَ في نفسهِ خِلالَ هَذهِ الحِقْبَةِ هي شخصيّة ميشال شيحا، المثقَّفِ الفرنكوفونيّ والسياسيِّ الكبيرِ المقرَّبِ من الرئيس بشارة الخوري والمؤسِّسِ لجريدةِ Le Jour والذي كان بمثابةِ الأبِ الروحيّ لشارل حلو.

ولا بُدَّ من التساؤُلِ هُنا عن موقفِ شارل حلو من فَرنسا.؟ "لبنان، يقول شارل حلو، على رُغْمِ تردِّي العلاقاتِ اللُّبنانيّةِ الفَرنسيَّة أحياناً، لم يَفْقِدْ أمَلَهُ بفَرَنْسا. ولا رَيْبَ في أنّ ثَقافَتنا وَتَقالِيْدَنَا تَدْفَعُ بِنا إلى التَحَمُّل والصَّبر أكثرَ من سِوَانا، وإلى اعتبَارِ ما يَجْرِي خِلافاً عَابراً بينَ أفرادِ عائلةٍ واحِدة، سُرْعَانَ ما يَذُوبُ ويَزُول وَيُنْسَى. فَنِضالُنا من أجْلِ الاستقلالِ ما كانَ يحمِلُ أبداً الحقدَ الذي استبانَ في عَدَدٍ من الدُّوَلِ العَرَبيَّة غيرِ الفرنكوفونيّة".

ومِنَ الصّحافَةِ، انتقَل شارل حلو إلى تَحَمُّلِ مسؤوليّاتٍ أَعلى فأعلى في الحَيَاةِ السياسيَّةِ حتى انتُخِبَ رئيساً للجمهوريّة. وخلالَ ولايتِهِ، وتحديداً في شهر أيّار ١٩٦٥، زارَ الرئيس حلو فَرَنسا والتَقَى الجنرال ديغول وزارَ بِرِفْقَتِهِ الأكاديميَّةَ الفرنسيَّةَ حيثُ شاركَ في جلسةٍ من جلساتِ الأكاديميّة المخصَّصة لتطويرِ قَاموسِ اللغةِ الفرنسيّةِ وأبدَى فيها مُلاحظاتٍ قَيِّمةً أَدْهَشَتِ الحاضِرين. ولا عَجَبَ في ذلك، إذ كانَ شارل حلو مِنَ العَارِفِيْن بِدَقَائِقِ اللُّغَةِ الفرنسيّة والداخلينَ إلى أخدارِهَا الحَمِيْمَة...

وقد بَقِيَ، بَعْدَ زيارَتِهِ لفرنسا، على اتِّصالٍ مستمرٍّ مع الجنرال ديغول، الَّذِي كانَ يحترِمُ، إلى حدٍّ بعيدٍ، الآراءَ التي كان يُبديها الرئيس حلو حول العلاقاتِ بين فرنسا والشرقِ العربيّ، خصوصاً في ظِلِّ الاعتداءاتِ الاسرائيليّة على بلدانِ المِنطقة.

واعتباراً من العام ١٩٧٠، بدأ الرئيس حلو يَبْتَعِدُ عن السّياسة. إلاّ أَنَّهُ لم يَبْتَعِدْ عنِ اهتمامهِ بدورِ لبنانَ الثقافيّ. فراحَ يُناضِل، مع مجموعةٍ من

رؤساءِ الدولِ النَّاطِقَةِ كُلّيّاً أو جزئيّاً باللغةِ الفرنسيّة، من أجلِ إرساءِ مبادئِ "الفرنكوفونيّة".

ومن أقوالِ الرئيس حلو حولَ هذا الموضوع، هذا المقطعُ الذي يَختَصِرُ أفكارَهُ:

"إنَّ لبنانَ فَخورٌ بالدَّورِ الرَّائدِ الذي لَعبَهُ في نهضةِ اللغةِ العربيَّةِ، ومهتّمٌ بأنْ يَلْعَبَ دوراً في الفرنكوفونيَّة. فعلَى رُغْمِ العَقبات العَديْدَة، لقد تمكّن لبنانُ من خَلْقِ جَوٍّ من الأُخوَّةِ بين الثَّقافَةِ العربيَّةِ والثقافةِ الفرنسيَّةِ، فأغنى كُلٌّ واحِدَةٍ بالأُخرى، مُؤكِّداً بذلكَ رسالتَهُ كأرض تواصُلٍ وحِوار..."

لا يَجُوزُ النظَرُ إلى الفرنكوفونيَّةَ وكأنَّها إمبرياليّةٌ سياسيّةٌ أو لغويّةٌ. إنَّ الفرنكوفونيّة وسيلةٌ فُضلَى للحوارِ بين الثَّقافَات. إنَّها لُغَةُ الإنسانيّة".

انطِلاقاً من هذهِ القَنَاعاتِ، قَبِلَ الرئيسُ حلو توليّهُ مَنْصِبَ عُضوِ شَرَفٍ في جمعيّةِ البرلمانيّينَ الناطِقينَ باللُّغَةِ الفرنسيّة.

وما لَبِثَ أن انتُخِبَ بالإجمَاعِ، رئيساً لَها بَعْدَ زيارةٍ إلى دَكار حيثُ التَقَى الرئيسَ Senghor، الذي تُوفِّيَ مُنذُ أيّامٍ والذي لَعِبَ دوراً فعّالاً في إرساءِ فِكْرَةِ الفرنكوفونيّة في البُلْدَانِ الأفريقيَّة. وبعد أيّامٍ على انتِخَابهِ، التقى الرئيس حلو الرئيس Pompidou في قصر الإليزيه، ثمّ راحَ، طَوالَ ثماني سنوات، يجولُ على البُلدانِ الفرنكوفونيّةِ يبشّرُ فيها بمبادئ الأخوّةِ والإنسانيَّةِ الَّتي تَرْعَى الأُسرة الفرنكوفونيّة، حتّى أنَّ الأستاذ غسّان تويني كَتَبَ في "النَّهار" مقَالَةً اعتبر فيها أنَّ الرئيس حلو باتَ، من خِلالِ هذه النشاطاتِ، أفْضَلَ سَفيرٍ لِلُبنَانَ في الخارِج.

وخِلاَلَ العام ١٩٨٣، انتُخب الرئيس حلو رئيساً "لوكالةِ التَّعاوُن الثقافيِّ والتّقَنِي" ACCT، التي كانت، آنذاك، أهمّ المنظّمات الفرنكوفونيّة، فلَعِبَ على رأسِ هذه الوكالةِ، دَوراً مميَّزاً. وتقديراً لجهودهِ، أُنشِئَتْ جائزةٌ دوليّة، أُطلِقَ عليها اسم "جائِزَة شارل حلو"، شاركَ فيها مُثقَّفون من مُختلفِ البُلدانِ الفرنكوفونيّة...

بَعْدَها، اتَّصل الرئيسُ فرنسوا ميتران بالرَّئيس حلو، وأعلمَهُ بإنشاءِ المجلسِ الأعلى للفرنكوفونيّة" Haut Conseil de la Francophonie، طالِباً منهُ أن يَكُونَ عُضواً في هذا المَجلسِ.

فوافق الرئيس حلو، واستمرّ، من خلال هذا المنبر الجديد، يدافعُ عن الفرنكوفونيّة وعن وجه لبنان الثقافيّ والحضاريّ مؤكّداً "أن ما يجمعنا ليس استخدام لغة واحدة فحسب، إنّما تمسّكنا العميق بالقيَمِ نفسها"

"Ce qui nous unit ce n'est pas seulement l'usage d'une même langue c'est le profond attachement aux mêmes valeurs".

وقد كتب الرئيس ميتران حول دور الرئيس حلو هذه العبارات المُلفِتة: "في إطار المجلس الأعلى للفرنكوفونيّة، كان لي الشرف بأن استمعَ إلى آراء ونصائح رئيس لبنان الأسبق الأستاذ شارل حلو، هذه الشخصيّة التي تُجسّد أسمى مبادئ الانسانيّة، هذه المبادئ التي تتخطّى الفروقات والمآسي والأحقاد".

أيّها السادة،

رأينا الرئيس حلو حاملاً رايةً للفرنكوفونيّة في المحافل الدوليّة. إلاّ أنّ هذا الدور المميّز يجب ألاّ يُنسيَنا شارل حلو الكاتب الفرنكوفونيّ

بامتياز. فقد نشر الرئيس حلو مذكّراتِه بالفرنسيّة، بالإضافة إلى كتابٍ عن زوجتِهِ نينا رفيقة العمر، كما جمع المقالات التي نشرها في L'Orient Le Jour وبعض الخطابات بالفرنسيّة في عدّة كتب نذكر منها:

Mélanges, Liban cette part de Dieu, Liban remords du monde

واللافت في هذه المقالات، إلى جانب أسلوب الرئيس حلو المُفعَم بثقافَتِه الكلاسيكيّة، روحُ الإنسانيّة والتسامح والإيمان باللّه والوطن، ورفضُ الاستسلام للقدر، والدعوةُ الدائمة إلى التعايش بين اللبنانيين.

وبالإضافة إلى المذكّرات والمقالات والدراسات، كتبَ الرئيس حلو مسرحيّتين **La vérité au bout du fusil** و**Où l'amour commence**، يعتبرهما النقّاد اليوم من أفضل ما كتب في المسرح اللبناني الناطق باللغة الفرنسيّة.

وفي النهاية، يبقى لنا أن نتساءل لماذا لجأ الرئيس حلو إلى الكتابة بعد أن ترك السياسة؟ لماذا عاد إلى حبِّه الأوّل بعد أن عايش أهمّ السياسيين اللبنانيين والأجانب؟ عندما ترك الحكم، قال الجنرال ديغول:

"La solitude était ma tentation, elle est devenue mon amie. De quelle autre se contenter quand on a rencontré l'histoire?"

"كنت أتوق إلى الوحدة، فأصبحت صديقتي. وهل من صديقةٍ أخرى لمن التقى التاريخ؟"

بالنسبة للرئيس حلو، لم تكن الوحدةُ خشبةَ الخلاص أو "الصديقة". كان منزلُهُ في الكسليك، حيث تكدّست الكتب إلى جانب الصور

التذكاريّة والميداليّات، مفتوحاً ليلاً نهاراً للأصدقاء والصحفيّين والمحتاجين.

بالنسبة للرئيس حلو، الصديقة الفضلى كانت الكلمة، الكتابة باللغة الفرنسيّة التي كانت جزءاً لا يتجزّأ من ثقافتِه وحياتِه. وعلى رغم تدهور صحّتِه، لم يستسلم الرئيس حلو للوحدة أو لليأس، وبقي يكتُبُ ويطالع. عندما التقَيتُهُ للمرّة الأخيرة، كان يقرأُ الانجيل المقدّس بالفرنسيّة. قال لي "اقرأ"، فقرأتُ مقطعاً من الانجيل
Aimer nous les uns les autres et priez pour ceux qui vous persécutent
"أحبّوا بعضَكم بعضاً وصلّوا لمن يضطهدونكم". قال لي: "هذه عقيدتي"، وابتسم. هكذا كان شارل حلو الفرنكوفونيّ، وقبل كلّ شيء الانسانيّ.

شارل حلو المفكّر

لعلّ شعب لبنان اليوم، نتيجةً لما رأى وعاني وما جرَّبَ ومن جرّب، غير مستعدّ للوقوع في شرك ثنائيّة الأبيض والأسود والملاك والشيطان، وهو يتحدّث عن ساسته ومتولّي شؤونه، سواء السابقون أو اللاحقون. وصيحة الخلاص، بأيّ شكل كان وبأيّ ثمن، سواء أطلقها معارضٌ في وجه حاكم أو حاكمٌ في وجه معارض، لن تكون مقنعة للكثرة من اللبنانيين الذين باتوا يشعرون أنّ مشاكل الوطن وتعقيداته وظروفه الدوليّة أصعب من أن تحلّها مبايعة غير مشروطة لحاكم أو معارض.

إنّ الناس تشعر، أكثر فأكثر، بالحنين إلى صنف من الحكّام والسّاسة طارحي الأسئلة على أنفسهم في أيٍّ من التصرّفات السياسيّة هو الأجدى وأيّ طريق أحرى بالسلوك وكيف الوصول إلى نقطة يستردّ فيها المواطنون الثقة بالنفس والمصير؟

بل إنّ اللبنانيّين لكثرة ما يرون اليوم في واجهة الدولة والحكم من طمأنينة مبالغ فيها واستصواب ذاتيّ للمسيرة، أصبحوا يحبّون في شارل حلو لا تقواه وإيمانه بالله والقدّيسين والملائكة، بل شكوكه وأسئلته بل حيرته أحياناً أمام المعضلات؛ وتكاد جاذبيّة شخص

كشارل حلو تتأتّى اليوم ممّا كان يُشكى منه في عهده، وهو كثرة شكوكه وتساؤلاته أمام الأحداث.

لكأنّ شارل حلو اليوم يعود إلينا حيّاً بالإنسان القلق فيه، لا بأيّ شيء آخر. وكم هي كثيرة الحالات التي أشعل فيها الشكّ، مع صدق السعي، ضوء المصباح الكاشف لعتمة الطريق.

إنّ العنوان الذي اختارته لجنة الاحتفال "شارل حلو المفكّر" يؤشّر على خصوصيّة حقيقيّة في هذا الرئيس الذي يستحقّ بالفعل هذا الاحتفال التكريميّ، الذي نشكر عليه جامعة سيّدة اللويزة من صميم القلب، وإن كان الزمن قد أبطل استعمال هذه اللفظة في اللغات العالميّة الأكثر معاصرة.

بتكريمه تكرّمون ونكرّم هذا الألق، بل هذا القلق الفكريّ الذي أكثر ما تحتاجه الأوطان الصغيرة في حكّامها، والذي كثيراً ما تقتله أبّهة الحكم حتّى في كبار العقل والروح.

فقد ظلّ شارل حلو حتّى آخر حياته قادراً على أن يطرح من الأسئلة ما يرقى بالأجوبة والحلول فيسدّدها، وقد كُتب عليه أن يجتهد وهو حاكم في ما هي مصلحة وطنه، فلم يفعل إلاّ ما هداه إليه تقديره حين لم يكن أمامه إمكان الخيار بين الخير والشرّ، مستوحياً مقاييسَ وقناعاتٍ استخلصها من ثقافته وتجاربه وانحيازه للحرّيّة والقيم وللدين وللوطن.

بل بتكريمه تكرّمون أيضاً كرسيّ الرئاسة اللبنانيّة التي تَعاقب عليها العديد من الرؤساء الذين مثّلوا بأكثريّتهم مواهب وخصائص ورسالة

لبنانيّة متألّقة، وعانوا معاناة شعبهم بمرّها قبل حلوها، وكانوا أعلاماً في القضيّة العربيّة الكبرى؛ والحكمُ في هذا البلد، ككلّ شيء فيه، لا يؤخذ ولا يجوز أن يؤخذ إلاّ بالجدارة، لأنّ من طبيعته أنّ الجسد فيه أصغر من الدور، والامكانات أقلّ من الرسالة.

ولأنّ دور شارل حلو لم يبدأ بالكرسيّ ولا انتهى بها، ولأنّه لم يكن أحاديّ النظرة ولا محدودها، فتكريمه تكريم لقيم شعبه وليس تكريماً لشخصه أو عشيرته.

خرج من بين النخبة الفكريّة اللبنانيّة، نخبة الكتّاب والصحفيين والمثقّفين، الذين بهم كما بغيرهم قام مجد هذا الوطن الصغير بحجمه الجغرافيّ والكبير في دوره التاريخيّ في الوطن العربيّ الكبير.

عاش الهمّ اللبنانيّ قبل رئاسته وخلالها وبعدها. ولأمرٍ ما اختار الكسليك مسكناً له على خطى رئيسين مميّزين جعل نفسه بالجوار ثالثهما؛ ولعلّه ثالوث رئاسيّ جميل في تاريخ هذا الوطن!

إنّ إطلالة شارل حلو الأولى ككاتب صحافيّ في جريدة باللغة الفرنسيّة في حلب، ثمّ في جريدة لو جور في بيروت، ومشاركته بيار الجميّل وجورج نقّاش المبكرة في العناية بالتجدّد في حياة الشباب اللبنانيّ، ثمّ دخوله وزيراً للإعلام والعدل في إحدى وزارات رياض الصلح، ثمّ استقالته المدّوية منها احتجاجاً على اعتقال رئيس تحرير جريدة الأوريان وطريقة استقبال رئيس الحكومة باطلاق الرصاص، وترؤسّه مكتباً في باريس للعمل من أجل القضيّة الفلسطينيّة، ومعركته الانتخابيّة الناجحة في الأشرفيّة في وجه رئيس جمهوريّة سابق..

محطّاتٌ أبرزت شارل حلو منذ البدء كسياسيّ من نوع خاصّ، يدخل العمل الوطنيّ ويتدرّج فيه من باب الفكر والقضايا.

نشط في الفرنكفونيّة ذلك النشاط العظيم الذي جعله كبيراً بين رجالات العالم، لا حبّاً فقط بلغة أتقنها، بل لأنّه رأى في الفرنكوفونيّة قلعة للحداثة التي يحتاجها لبنان وأشقّاؤه العرب الموزّعون في القارّات على طريق النهوض واللحاق بالعصر، وما كان يجهل أنّ البحر الأبيض المتوسّط هو جغرافيا بحر العرب مثلما هو بحر الأوروبيين.

في الوقت الذي كان رئيساً للفرانكفونيّة وأحد مؤسّسيها مع ليوبولد سنغور، كان يتدرّب، وهو في السبعين من عمره، على حفظ روائع المتنبّي، ويزهو برنّة قوافيه وسحر العربيّة عنده.

وكان اشتُهر عن شارل حلو، من أوائل الاستقلال، دأبُه في التعرّف بروائع البلاغة العربيّة في كتاب الحماسة خاصّةً، حتّى أنّ الرئيس بشارة الخوري طالما عمد، قبيل بدء جلسات حكومة عبد اللّه اليافي عام ١٩٥١، إلى مطالبة الوزير حلو بإسماع الحاضرين آخر محفوظاته من شعر المتنبّي.

لعبت صورة الجمهوريّة الثالثة في فرنسا دور النموذج في نظر شارل حلو وجيله. وكان للمثال الفرنسيّ فعل السحر في نفسه بما أعطت هذه الجمهوريّة للصحافيين والكتّاب والمحامين ورجال الكلمة ومثقّفي الانسانيّات ممّن يُسمّون في الفرنسية hommes de lettres من دور داخل النخبة السياسيّة. وعلى الرّغم من مطالبة غالبيّة الطليعة

اللبنانيّة بالاستقلال التامّ عن فرنسا ومعرفتها بايجابيّات النظم السياسيّة الأوروبيّة والأميركيّة وحتّى الألمانيّة والايطاليّة والروسيّة، بل وتقديرها للحركة الهنديّة الاستقلاليّة بزعامة غاندي وللحركة العربيّة، فإنّ كلّ هذا لم يصرف جيل شارل حلو عن التأثّر الخاصّ بصورة الجمهوريّة الفرنسيّة لجهة دور الكتّاب والصحافيين وقادة الثقافة فيها. وكانت المدارس في لبنان، كاليسوعيّة خاصّة، تضخّ داخل التكوين السياسيّ اللبنانيّ الاعجاب بالمثال السياسيّ والاداريّ والثقافيّ والماليّ الفرنسيّ.

إنّ شخصيّة شارل حلو الفكريّة أقرب ما تكون إلى مدلول homme de lettres بالفرنسيّة، أي مثقّف الانسانيّات أو رجل الأدب أو الأديب بالمعنى الواسع، وليس إلى مدلول كلمة مفكّر بالمطلق التي تراجع استعمالها وتوزّعت على كلمات أدقّ وأقلّ عموميّة كالمحلّل واللاهوتيّ وتقنيّ الأفكار العامّة بل المنسّق بين الأفكار. وبعد صمود كلمتي فيلسوف وعالم، لم يبق مكان لكلمة مفكّر. أكل كلمةَ مفكّر ويأكلها توسّعُ الاختصاصات. وما كان يُرمز إليه بكلمة مفكّر، أصبح يُرمز إليه بكلمات أخرى في جميع اللغات.

وإنّك تجد كلّ هذه في شارل حلو، من دون أن يكون هو في أيّ منها بكامل شخصيّته.

كان أكثر إعجاباً بفرنسا، حتّى من صديقيه بيار الجميّل وجورج نقّاش، اللذين تأثّرا بتجارب شبابيّة يمينيّة معيّنة داخل الحياة الفرنسيّة، بينما هو تأثّر بالحياة السياسيّة عامّة، ولا سيّما دور الأدباء فيها.

في المدّة التي قضاها يعمل فتى راسخ الدور في صحيفة تصدر باللغة الفرنسيّة في حلب (Eclair du Nord)، عاش جوّ سوريا الشماليّة، ملاحظاً في كتابه "**حياة في مذكّرات**" أنّ فرنسا الانتدابيّة كانت هناك أقوى ممّا كانت في سوريا الجنوبيّة. آنسه من حلب التقارب العدديّ بين مسلميها ومسيحييها، وأعجبه، من موقع التقدير لا المماهاة في الرأي، بعض شخصيّاتها المعارضة للانتداب الفرنسيّ.

أثناء أحداث العام ١٩٥٨، والتي كانت أوّل هزّة كبيرة تعرّض لها لبنان المستقلّ، نجده خائفاً على لبنان شبابه وكأنّه يشعر، بل أوّل الشاعرين بأنّ لبنان معرّض لتغيير كبير إن لم نقل بخطر، فيتحرّك بحماس وبفعاليّة بموقفين: الأوّل، نشاطه الكبير بترجيح كفّة كميل شمعون على حميد فرنجية، إذ أقنع كتلة بيروت البرلمانيّة بانتخاب الرئيس كميل شمعون؛ والثاني، اقتراحه أثناء حوادث ١٩٥٨ فكرة الحياد الدوليّ للبنانَ محميٍّ بضمانة دوليّة. لكنّه عاد وقبل الواقع الجديد، وصار فيه رئيساً لبنانيّاً معتدلاً وراضياً باللعبة الديموقراطيّة مع ما في ذلك من تسويات لا مفرّ منها على حساب حلمه اللبنانيّ الأوّل أيّام رفقته لبيار الجميّل وجورج نقّاش، اللذين اعتدلا هما أيضاً مع الأيّام داخليّاً ومع المحيط. أمّا سبب تدخّله الشهير في ترجيح كفّة رئاسة سليمان فرنجية لرئاسة الجمهوريّة على الياس سركيس، فلعلّه، إلى جانب عاطفته المنحازة لفرنجيّة، خوفٌ عنده من المضاعفات الفتنويّة أو تحفّظٌ على دور العسكر في السياسة.

كان يهمّه أن ينظر الحاكم وكلّ مسؤول عن عمل إلى ما هو أبعد من أنفه حسب التعبير الفرنسيّ، أي أن يكون عقلانيّاً بعيد النظر؛ وكان يضحكه بعض التعليقات الشعبيّة على ذوي المناصب السياسيّة كما لو أنّ المفترض فيهم أن يكونوا غير البشر حتّى في شؤونهم العاديّة: كان يضحك كثيراً وهو يروي أنّه عندما تولّى رئاسة الجمهوريّة قال أحدهم لآخر ذكر اسمَه أمامه "لا تقل: شارل حلو رئيس جمهوريّة،... مبارح كان ساكن قربنا في الأشرفيّة". وكأنّ المفترض في رئيس الجمهوريّة المستحقّ للرئاسة أن يكون أسمى من أن تقع عليه عين، في جوّ مغلّف بالسحر، مصوناً عن أن تأكل الألفة من هيبته. ولعلّه أراد، بهذه القصّة الطريفة، أراد أن يشير إلى أنّ الناس، وهيهات أن يكون ذلك ممكناً، تحبّ أن ترى في الحاكم شخصاً عجائبيّاً، وبالتالي قادراً على الاتيان بالعجائب. وكأنّه يعني ما عناه الشاعر والأديب الانكليزيّ د. صامئويل جونسون القائل في بيت شعريّ: كم هو صغير من معاناة القلب البشريّ ذلك القدر الذي تستطيع الملوك والقوانين أن تحدثه أو تزيله، تاركاً للأنبياء وللتجربة الدينيّة وحدها مثل هذه القدرة.

كان شديد الحرص دائماً على الثوابت اللبنانيّة الميثاقيّة حتّى قبل الميثاق، وعمل إلى جانب ميشال شيحا في جريدة اللجور على نشرها: الاستقلال، الحريّات، السياسة العربيّة، التوازن الطائفيّ.

اهتمّ في أحاديثه وحواراته وذكرياته كاستقلاليّ قديم شارب من رأس النبع بأن ينزّه الميثاق الوطنيّ اللبنانيّ عام ١٩٤٣ عن أن يكون، كما اتُّهم، قد جاء للبنان بالدولة الطائفيّة، مقرّراً أنّ الطائفيّة تكرّستْ قبل

الاستقلال بنصوص جاءت في المعاهدة اللبنانيّة الفرنسيّة سنة ١٩٣٦ وصُوّت عليها من مجلس النواب اللبنانيّ آنذاك. وهذا، واللّه أعلم، يوحي بأنّه، وإن قال بالتوازن الطائفيّ، إلاّ أنّ الطائفيّة كمبدأ لا ترتفع عنده إلى مستوى المقدّسات.

إيمانه بالصحافة ورسالتها لفت نظر غسّان تويني، فسجّل له أنّه القائل في مذكّراته "حياة في ذكريات": "الجريدة بالنسبة إليّ مكان التقاء ثقافيّ رفيع ومركز إشعاع وتعبئة وإبراز للمواهب المتعدّدة" كما سجّل له قوله: "إنّ الأوضاع التاريخيّة المعقّدة لا تستدعي عند نضجها سوى جهد بسيط لحلّها أو تفجيرها" وهي الفكرة المعبّر عنها في الماركسيّة بفعاليّة تضافر العوامل الذاتيّة والموضوعيّة لصنع التغيير.

كان يعتقد أنّ بيروت موحّدة تصنع لبنان الواحد، وبيروت مقسّمة تقسّم لبنان. وكان يؤمن بالحريّات في السياسة والاقتصاد والثقافة شرطاً حضاريّاً في المطلق، ورسالةً للبنان في محيطه.

استمرّ بعد الاستقلال، شأنه قبله، يدعو إلى صداقة فرنسا. ولكنّه عرف، إلى جانب ذلك بل قبل ذلك، أنّ وجود عرب متضامنين، ودول عربيّة متضامنة، قوّةٌ للبنان الدولة والمجتمع والانسان. ولبنان لم يهتزّ إلاّ بعد اهتزاز الوضع العربيّ واستقواء اسرائيل عليه. في المرحلة التي كان هناك تضامن عربيّ وجامعة دول عربيّة فاعلة، كان لبنان أكثر استقراراً وأكبر دوراً وأوفر فائدة له ولقضايا العرب.

ومن يعرف أصدقاء شارل حلو في فرنسا وغيرها من دول العالم يعرف أنّهم جميعاً من أصدقاء العرب دولاً وقضيّة، كديغول والفاتيكان.

وهذا الخيار كان واضحاً في سلوكه منذ أيّام جريدة اللوجور وبشارة الخوري والدستوريين.

بدأ عهده رئيساً بزيارة القاهرة والفاتيكان وفرنسا، مع ما في ذلك من دلالات على توجّهه الفكريّ السياسيّ.

ردّد دائماً أنّ دور أميركا شبه المتفرّد في قيادة العالم خللٌ، مسؤولٌ عنه انتحارٌ ذاتيّ لأوروبا في حربيين عالميّتين أطاح قوّة فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وكان خالدا لبنان: الريحاني وجبران، قد تنبآ منذ الحرب العالميّة الأولى بذلك، ورأياه بوضوح قبل أن يصبح حقيقة أساسيّة ناطقة من حقائق العصر.

حلم صادقاً كحاكم بحياة لبنانيّة أرقى ممّا حوله، لا يسيطر عليها العسكر أو سلبيّات التراث السياسيّ الـ ما قبل شهابيّ، ولكنّه عجز عن إيجاد صيغة سيطرة تبقي في يد الدولة قدرة على الخروج من التجاذبات.

وجرؤ على ما لم يجرؤ عليه غيره في تطهير القضاء. وهو، إن فشل في ذلك، فقد أخرج العين اللبنانيّة من العمى عمّا في أوضاع السلطة، وهذا فضلٌ ولو في حدود رومنطيقيّة القول:

شرفُ الوثبة أن تُرضي العلى غلب الواثبُ أم لم يغلبِ.

نوع تفكيره الدينيّ الروحيّ لعب دوراً في عدم مضّيه في التطهير إلى النهاية، إذ ضخم في عينيه وزر مقاضاة الناس في ضمائرهم ونيّاتهم.

في العهد الذي سبقه كان الغالب رئيس الدولة والمكتب الثاني والجيش المُتسيّس، ولم يكن هذا من رأيه. وكان يتصوّر أنّ حريّة

الحركة للزعامات المعادية لشهاب سوف تدحر الغالب الأوّل فتكون الدولة ورئيسها هي الغالب. ولكنّ ما حدث هو أنّ المكتبَ الثاني ونقيضَه بقيا غالبين، والرئاسةَ دائماً مغلوبةً؛ ولم ينفعه كثيراً دوره ودور وزير داخليّة حكومته في منع إسقاط رجل الحريّات ريمون إدّه في انتخابات جبيل.

إنّ قبوله الشهير باتفاق القاهرة، وإن لم يخل من شعور التعاطف النبيل مع شعب شقيق، فإنّه قام أيضاً على محاكمة ذهنيّة سليمة لظروف واقعيّة ومعطيات راهنة.

كان يستحيل عليه في ذلك الوقت أن يجد إلى جانبه رئيس حكومة يواليه ضدّ هذه الاتفاقيّة. والبرهان أنّ رئيس الحكومة آنذاك رشيد كرامي كان قد علّق واقعيّاً مسؤوليّاته الرسميّة أو تُبرمَ الاتفاقيّة، فضلاً عن أنّ عدم قيام اتفاق بين السلطات الفلسطينيّة واللبنانيّة من شأنه أن يجعل عمليّاً أكثر من حكومة عربيّة تزيد، عن قناعة أو غير قناعة، من دعمها للعمل الفدائيّ على قاعدة "كن بعيداً عن أرضي وأنا معك"، ممّا سيضعف لبنان داخليّاً ويحيطه عربيّاً بعزلة متضاعفة. هذا إلى اعتقاد له راسخ بأنّ السلم العربيّ الاسرائيليّ لن يكون، بأيّ حال من الأحوال، حتّى في حال قيام سلام، كما قال مرّةً للجنرال ديغول.

كان التحدّي الذي واجه شارل حلو، عند وصوله إلى رأس السلطة، أن يعمل على أن يبعث من جديد دولة بل وطناً، كانت الأقدار قد أنزلته إلى واد سحيق بل غيّرت من طبيعة الحياة فيه، فحاول جهده، من غير أن يستطيع، أن يصنع الحياة التي يريد لوطنه، لا أن يصل بهذا الوطن

إلى القمّة التي وصل إليها هو. فالكلمة، وهي عالمه المشعّ وسلاحه ورمز شخصيّته وميزة عهده ورسولته السحريّة إلى القارات، كانت غير كافية لأن تهزم المصاعب والخيبات والأخطار البادئة بالامساك بمصير وطنه.

لقد بقي هذا الرئيس المبطّن بانسان حقيقيّ، والذي أوتي من صفات العقل والقلب والروح فوق ما في معدّل السياسة اللبنانيّة بكثير، عاجزاً أثناء رئاسته عن أن يضع، من داخل النظام الذي هو رأسه، صيغة سيطرة على حركيّة السياسة العامّة، التي أطلقها مجيئه برضى منه وبتشجيع على الأغلب.

كان في سرّه، باستمرار، سؤال محبوس: ما العمل؟

عندما اختير صديقه تقيّ الدين الصلح رئيساً للحكومة في عهد خلفه سليمان فرنجيّة، ونجح في تأليفها وفاقيّةً من كلّ الأطراف اللبنانيّة المتنازعة، كتب شارل حلو بانحيازه لنموذج السياسيّ الأديب، على طريقة الجمهوريّة الثالثة الفرنسيّة، مقالاً افتتاحيّاً في جريدة النهار بعنوان "تقي الدين الصلح أو قوّة الكلمة"، وكأنّ شارل حلو في هذا المقال يصوّر نفسه أيضاً لا تقيّ الدين وحده.

كانا معاً في المجلس الأعلى للسياحة، الذي يقول في مذكّراته إنّ وجوده فيه كان من أسباب وصوله إلى رئاسة الجمهوريّة.

كان هو رئيساً والعمّ تقيّ الدين نائباً. وكانا، رحمهما اللّه، متقاربين في المزاج.

كان يحلو للرئيس أن يفتح مع العم حديث المسلمين والنصارى من قبيل التمارين الذهنيّة كاشفة الأغوار.

مرّةً هتف له معاتباً شاكياً من أنّ مفوّضاً في الأمن العام، مكلّفاً بمراقبة الأفلام، رفض السماح بالعمل في لبنان لفيلم عن الفينيقيين حتّى قبل أن يشاهد شريطه بالكامل. فأجابه العم: لعلّ له عذراً. فعاوده الرئيس الكلام: أيعقل أن تسمح ليبيا وسوريا بدخول الفيلم إليها، ويُعرض فيهما أسابيع ويكون الفيلم نفسه ممنوعاً في لبنان. أريد أن أعرف ما هو اعتراضكم يا مسلمون على الفينيقيين. فأجاب العمّ على ذمّة الحلو: الفينيقيّون أوادم ولا اعتراض عليهم، ولكن ما العمل وقد أحبّتهم الكتائب وأكثرت من حبّها لهم فشَبَهتهم.

مرّة أخرى تلفن الرئيس الحلو: يا تقي – قال، أريد أن أفهم منك مسألة: هل يمكنك أن تخبرني لماذا يظلّ المسلم هنا زعلاناً من دولته، وحالة المسلم اللبنانيّ هنا، كما تعرف، أفضل منها في بلاد أخرى ليس فيها غير المسلمين. فأجاب العم: مخجول من إخوانه.

كان صادقاً في الرغبة في معرفة كيف يفكّر اللبنانيّ الآخر من البيئة الاسلاميّة، بل كيف يشعر، لأنّ لبنان، كما يؤمن، لا يمكن أن يساس بالخط السياسيّ الأحاديّ النظرة.

سمعته مرّة يدافع عن نفسه في وجه مأخذ عليه كان رائجاً في وقت من الأوقات، ولعلّه مروّج من أجهزة عملتْ على إضعافه في تلك الفترة، فيقول: يصفونني بأنّني متردّد، لماذا لا يقولون إنّني لا أحبّ أن أخطئ أو إنّني أفكّر أو إنّني مفكّر.

ثمّ استدرك خوفاً من سوء الفهم قائلاً: أستغفر اللّه على هذه الكلمة. إنّها كلمة كبيرة.

وقد استغفر اللّه على الأغلب، لا لتواضع تقليديّ، ولا لأنّه يشكّ في قدرته على التفكير، خصوصاً بالمقاييس السائدة، بل لأنّه يعرف مثلنا جميعاً أنّها كلمة من زمن آخر.

كان بالتأكيد واعياً على خصوصيّته الفكريّة، يعرف كيف يومئ إليها بذكاء ولطف وتواضع، فتمضي الايماءة إلى ذهن السامع كالفيتامين في البرتقالة يفيد الجسم، وآكلُ البرتقالة لا يشعر إلاّ باللذّة.

أمّا تردّد شارل حلو فهو، وإن كان خيراً، في كلّ حال، من البتّ السريع والاستبداديّ في القرارات التي عرفناه بعده عند بعض الرؤساء، بل إنّه نوع من المشاورة الداخليّة الواعية كما كان يقول، إلاّ أنّ عيبه كحاكم أنّه لم يخرج بهذه المشاورة من الذات، ولم يكن يستشير إلاّ أفراداً، فبقي دون الصيغة التي اختارها بعض رجال الحكم والسياسة الكبار، ومنهم في لبنان بشارة الخوري ورياض الصلح وكمال جنبلاط، الذين اعتمدوا، رغم ثقتهم برأيهم، بديلاً من حوار الذات وحدها، الشورى داخل مجموعة ضيّقة أو متوسّطة كأسلوب في التعامل مع القضايا، فحَمَوا ذاتهم من مساوئ البتّ المتسرّع والحيرة أيضاً. ومع ذلك لم يسلموا كقادة، ولو مميّزين، من أخطاء.

بناء على تكليف لنا من فؤاد شهاب، قُدّر لي أن نعمل معاً في داره بالأشرفيّة على وضع مخطّط لوزارة الأنباء؛ وكان ذلك إثر انتفاضة

الكتائب ضدّ حكومة رشيد كرامي الثُمانيّة التي كان الحلو عضواً فيها، ومجيءِ حكومة الأربعة. وقد قال لي حينها إنّ وظيفتنا أن نكون فوسفور هذه الدولة، دولة شهاب، أي عقلها، فلمّا عرف فؤاد شهاب بهذه الكلمة قال: لماذا لا...

له في وظيفة الكلمة عند الحاكم اللبنانيّ شبه نظريّة قالها لجورج بامبيدو بحضور ديغول في مجرى حديث بين الثلاثة. أدلى بومبيدو بأنّ الكلمة أحياناً تقوم مقام الفكر، معتبراً إيّاها، بشيء من الغمز، نوعاً من مرادف لما نسمّيه بالعربيّة الدارجة "سفسطة"، فصحّح شارل حلو لبومبيدو بأنّ الكلمة إنّما تقوم مقام العمل، قاصداً بذلك، واللّه أعلم، أنّ المسؤول في دولة ضعيفة مضطر أحياناً لأن يغطّي بالكلام عجزاً حقيقيّاً عن العمل.

من أقواله الشهيرة التي خدمته في زمانها أنّ السلام بمعنى عدم الحرب بين العرب وإسرائيل ممكن، أمّا السلم بمعنى السلام المطبّع فغير ممكن.

في مقابلة صريحة مع ديغول يرويها في مذكّراتها، يقول له الجنرال: "ليس أمامكم وأمام العرب مناصٌ من الحرب، ثمّ لا إمكانيّات لكم بالحرب، فماذا سيكون الوضع حسب تصوّرك؟". فقال شارل حلو: "ربّما لم تكن الحرب ممكنة الآن، ولكنْ من الأكيد أنّ السلم مستحيل، وسيكون الوضع متأرجحاً بين اللا سلم واللاحرب". قال ديغول: "ما تشرحه لي هو بعيد عن تفكيريّ. أعذرني إذا قلت إنّ وضعاً كالذي تصف يبدو لي أقرب إلى اللا منطق منه إلى المنطق". "قلت"،

والكلام لحلو: "كنت أنتظر مثل هذا الكلام، وأودّ أن أؤكّد لك أنّ المنطق الكارتيزيانيّ الذي تعتمدون عليه في الغرب يناقض حقيقة الحياة التي قد تبدو لكم لا منطقيّة".

هو إنسان مفكّر. وأفضل ما فيه أنّه يعرف شرف هذا النعت.

إنّ شارل حلو رئيس مفكّر أيضاً بلا شكّ. لكنّ ذلك شيء، والمفكّر السياسيّ ككارل ماركس وهيغل وإدموند بيرك ومن شابههم من أصحاب النظريّات وفاتحي الدروب التاريخيّة في الفكر السياسيّ شيء آخر.

وقد روى لي الرئيس حلو، من قبيل الترنّم بكلمة قويّة من كلماته، أنّه في زيارة له إلى مصر مبعوثاً من رئيس الجمهوريّة المنتخب سليمان فرنجيّة للتعزية بوفاة الرئيس عبد الناصر، كانت له كرئيس جمهوريّة مغادر جلسة مع خليفة عبد الناصر المعلن الرئيس السادات، حدّثه فيها أنّه كان سفيراً للبنان في الفاتيكان في عهد البابا بيّوس الثاني عشر، وقد حضر، من بعد، حفلة تنصيب البابا يوحنّا الثالث والعشرين، فسمع السفراء يتساورون فيما بينهم: كيف يمكن لهذا البابا ذي الشكل الايطالي القرويّ أن يملأ مكان ذلك الامبراطور الغائب؟. ولكنّ البابا الفلاّح استطاع، في ما بعد، أن يكون أهمّ الباباوات، ثمّ أكمل مخاطباً السادات: السبب، يا سيادة الرئيس، أنّ البابا الجديد لم يُقلّد سلفه.

وكدت أسأله، وإن لم أفعل، هل تريد يا فخامة الرئيس أن تقول إنّ دهاء لبنانيّ كبير هو الذي أرسل الرئيس المصريّ الراحل إلى كامب ديفيد.

ليسوا قليلي الدور والتأثير حقّاً هؤلاء الساسة المبطّنون بأدباء أو الأدباء المبطّنون بالساسة الذين يؤمنون فعلاً بقوّة الكلمة وما تختزنه من دور الفكر واللقاء في العمل السياسيّ والوطنيّ. هؤلاء الأدباء على غرار هافيل في تشيكوسلوفاكيا، وعلى غرار إدوار هريو في فرنسا، هم أيضاً كغيرهم لهم سهم خاصّ في سير السياسة في التاريخ، في الماضي والحاضر والمستقبل. وعندما أتذكّر أسلوب شارل حلو في السياسة وفعاليّته لا أستطيع إلاّ أن أتخيّل تلك الصورة له في الصفحة الأخيرة من النهار بريشة بيار صادق والتي كانت تقدّمه من داخل ثوبه الكهنوتيّ لاعباً سياسيّاً ماهراً قادراً على طريقته على تسديد أفعل السهام ضدّ أخصامه السياسيين.

كان يشعر بشيء من الوحشة، لتنامي دور العسكر والاقتصاديين في اللعبة السياسيّة، وإن كان قد عرف كيف يتكيّف مع هاتين الظاهرتين. وكالكثير من زملاء مدرسته السياسيّة المطعّمة بالفكر والأدب، عاد فشعر بشيءٍ من ردّ الاعتبار والقيمة بثورة الاتصالات والمعلومات ووزن الخبر والمعلومة.. المتنامية عالميّاً، في صناعة القرار السياسيّ. لقد أرضت فيه جانب السياسيّ والكاتب والصحافيّ الذي يحبّ أن يرى في الحريّة والنتاج المعرفيّ والانسانيّ إغناءً وتعميقاً لرسالة السياسة. وإذا كان عنصر القدرة الاقتصاديّة ضرورة، بل أساس لثورة المعلومات، فهو هنا يؤدّي وظيفة تشرّفه وتؤنس دوره.

الجلسة الثالثة

الموضوع	شهادات: ماذا تبقّى من الرئيس شارل حلو؟
الرئيس	الوزير النقيب عصام الخوري

المتكلّمون

المطران بشارة الراعي	الروحانيّ
السيّدة بهية الحريري	الاجتماعيّ
الآنسة رانية بارود	الانسان
النقيب ميشال اليان	المحاميّ
الأستاذ جورج غانم	الاعلاميّ


NDU
جامعة سيدة اللويزة
تحيي بتقدير و محبة
الذكرى السنوية الأولى لغياب
فخامة الرئيس شارل حلو
٢٠٠٢.١.٢١

شارل حلو... ماذا تبقّى بعد مماته؟

بهيّ الطلعة، طلق المحيّا، متوقّد الذهن، سريع التصوّر، قويّ الذاكرة، أنيس المحضر، فكه الحديث، رفيع الثقافة، حسن المحاضرة، واسع الرواية، قويّ الحجّة، عميق التعليل، سلس الأسلوب، ورع، مؤمن، ملتزم؛ محامياً كان، وصحافيّاً ودبلوماسيّاً ونائباً ووزيراً ورئيساً للبلاد.

تتزاحم حُسنى الأسماء في وصف هذا النابغة وتتوالى الألقاب، والسؤال موضوع حلقتنا، واحد: شارل حلو... ماذا تبقّى بعد مماته؟

سؤالٌ بسيط في ظاهره، معقّد في جوهره، لما ينطوي على أسئلة كبيرة، تتناول أعمق وأدقّ مسائل الحياة والموت وما بعدهما.

مات شارل حلو، نعم؛ وكلّ نفس ذائقة الموت. إنّه خاتمة كلّ عناءٍ، ونهايةُ كلّ جهاد. فنفس خالدة تصعد إلى باريها لتقدّم حساباً إلى أعدل العادلين وأرحم الراحمين، وجسد فانٍ يوارى الثرى، وذكرى يردّدها الأحياء عمّن رقدوا على رجاء القيامة.

على أنّ هذه الذكرى ليست هي هي، بالنسبة لجميع الذين ارتحلوا على أمل البعث اليقين. فثمّة بين الناس من يولد مرّتين ويحيا عمرين: مرّة أولى من رحم أمّه، ومرّة ثانية من رحم طيب أعماله. الولادة الأولى ينالها الموت، أمّا الثانية فلا يقوى عليها، وهي إلى خلود.

صدق الذي قال "والذكر للإنسان عمرٌ ثان". وما أرقّ "قطرات ندى" راجي الراعي وأصدقها، حين يقول: "قالت الحياة للموت: لن تظفر بميتك ولن تمحوه، فسأحيله بيدي زهرة بترابك".

ومغبوطة النفس التي تجد، بعد وفاتها، من يرعى ألقها، ويُذكي توهّجها، وينشر عبير ذكراها. ذلك أنّ كثيرين بين عظماء الدنيا، قادةً وأدباءَ ومفكّرين، من فاتهم، في زمن معيّن، أو ظرف محدّد، من يهتمّ بإحياء تراثهم، ونشر آثارهم، فنسج العنكبوتُ خيوطَه حول مآثرهم، فنسيهم الناس.

وإنّني، إذ أسوق هذه الخواطر، فليس خوفاً على ذكرى شارل حلو أن يلفّها النسيان، وقد توزّعت روحه الرقيقة في قلوب معظم الناس، واهتدى باشعاع ثقافته وفرةٌ من الأدباء والمثقّفين، أكانوا من الناطقين بالضاد أو بالفرنسيّة. بل إنّني نحوتُ هذا النحوَ لأُعرب عن تقديري لجامعة سيّدة اللويزة لسعيها الدؤوب، ومنذ تأسيسها، على جعل الزيت دوماً مضاءً في مصابيح كبار وأعلام رجالات من لبنان، خدمةً منها للمعرفة والثقافة، بحيث لا يغشى نور تلك المصابيح غشاوةٌ، ولا يحدّ من شعاعها غمام.

وما اجتماع صفوة أهلِ الفكر، والسياسة، بمبادرة من "القلب إلى الذاكرة" كما جاء في بطاقة الدعوة إلى هذا اللقاء، سوى عاطفة وفاء مزدوج:

- نحو الرجل النابغة، يستحقّه بلا ريب، يصدر عن صرح للعلم والأخلاق، كم كان بينه وبين القيّمين عليه، رؤساءَ وأمناءَ ومديرين، من وشائج ودٍّ وتقديرٍ وتعاون، لأجل انطلاقه وازدهاره،

- ونحو ما خلّف الرجل من إرث جليل في غير حقل من حقول الفكر والحقّ والأخلاق والوطنيّة، يُدرس ويُدرّس؛ وما ترك من مآثرَ صالحةٍ يخلد بصلاحها.

عمل شارل حلو لآخرته، بكلّ برّ وتقوى، كأنّه مائتٌ غداً، وعمل لدنياه بلا كلل، بجدٍّ ولذة وألمعيّة، كأنّه عائش أبداً. كان، في آنٍ، ماضياً يحيا في الحاضر، وحاضراً يتطلّع إلى المستقبل يستشفّ غياهبه ويكشف أسراره. ففتوّته في كنف عائلة كريمة تقيّة، ونشأته في مدارس الآباء اليسوعيين وجامعاتها، رسّختا في نفسه إيماناً باللّه لا يتزعزع وبتعاليم المسيح القائمة على المحبّة واللطف والرقّة والتسامح والغفران، فعايشت شبابه محامياً وصحافيّاً، يدافع عن قيم الحقّ والحريّة والعدالة والمساواة. وهذه القيم بالذات عايشت فترة رجولته نائباً وسياسيّاً ووزيراً، ثمّ رئيساً متفانياً في خدمة شعبه وبلاده، وكان همّه أبداً مجد اللّه في السماء وكرامة الانسان على الأرض. وهذا الهمّ رافق شارل حلو في شيخوخته، وحتّى اللحظات الأخيرة من حياته، ولسان حاله مع أبو ريشة يقول:

عالم الوهم نحن صنعنا رؤاه ... وأردناه أن يكون فكانا
لست تستطيع أن تكون إلهاً ... فإذا اسطعتَ فلتكنْ انسانا

لم يكن الماضي إذاً مجرّد ذكريات في خاطره – ما أبشع ذكريات لا تثير فينا سوى كآبة لأنّها كلام على زمان مضى وعلى هناءة ولّت – إنّما كان استمرار حياةٍ في كيانه. حياةَ طموح، خلاّقة، مبدعة، مثمرة، معطاء.

شارل حلو عاش حياته وكان قابضاً على دنياه، وعاش مبادئه وكان وفيّاً لها. كثيرون غيره، من رجال سياسة أو أدب، "لا يعيشون... وهم إنّما يموتون لأنّهم لم يعيشوا".

ولعلّ أبرز وجوه عظمة شارل حلو في أنّه طاف العالم، حضوراً دبلوماسيّاً وسياسيّاً وإشعاعاً فكريّاً وثقافيّاً، ومدّ يده إلى كلّ أفق، وقدماه راسختان أبداً في لبنان. أُلقيت إليه مقاليد رئاسة الدولة في فترة حرجة ومرحلة دقيقة، فنادى بالسلام وعمل لاخماد النار، يوم كانت متأجّجة، ولم يكن كلّ شيء ممكناً في ذاك الحين. ولكنّه، لم يتخلّ، في أيّ آن، عن ثلاث ثوابت، كانت دستور عمله السياسيّ:

– الحريّة تطبع لبنان بطابعها المميّز، وبدونها لا يوجد لبنان.

– حقوق الانسان هي ركيزة العيش والتعايش، وهي نسيج متكامل لا يجوز فيه التجزئة أو الانقسام.

– نعم للسياسة التي تبني، ولا للسياسة التي تهدم لتبني بيوت الأنانيّة.

غادر الكرسيّ بالكرامة كما دخلها بالإكرام، وودّع المنصب الأعلى على غير مرارة، ذلك أنّ شخصيّته المجلببة بالبساطة والإباء لم تكن محتاجة إلى بهرجة الحكم، وبقي يتتبّع من عَلُ سير الأمور، يشير

بالمعروف ويعاون بالحكمة والاخلاص. واستمرّ حتّى أيّامه الأخيرة موئلاً ومرجعاً لكلّ صديق وغير صديق، لما اتّصف به من أدب جامع وعشرة مستطابة.

فلا عجب أن يظلّ حضور شارل حلو رشداً يُؤتمّ به، مهما توالت السنون؛ وأن يبقى اسمه بعد مماته نفحة طيّبة عند أهل العلم والأدب، وكتابَ هداية في الشأنين الأخلاقيّ والوطنيّ؛ وأن يردّد كثيرون، في ذكراه اليوم وغداً، وبعد غد، حكمة الشاعر العربيّ:

وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حيّا

سيّداتي سادتي، دعوني لا أسترسل، فالكلام على شارل حلو يَلذّ ويطول، بل لا ينتهي، ويجب أن أفسح في المجال للسادة المشاركين في هذه الندوة. إنّني على يقين أنّ لديهم الكثير الكثير يقولونه في هذه المناسبة: أوّلاً، لأنّهم صفوة أهل الدين والحقّ والعلم والكلمة والمعرفة، وثانياً، لأنّ كلّ إناءٍ لا ينضح إلاّ بما فيه. وإناء شارل حلو قارورة عطر، يتضوّع أريجه كالعبير في أجواء شاسعة، في البلاد وخارجها، بين أهل وأصدقاء، وبين حافظي ودّ وقادري جميل أفعال. فإلى روحه أحرّ تحيّة وأعطر سلام.

شارل الحلو الروحانيّ

أعتقد أنّ ما ميّز الرئيس شارل حلو وأغنى شخصيّته التعدّديّة، كصحافيّ وكاتب، ومحامٍ وسفير، ووزير ورئيس جمهوريّة، ومواطن عاديّ ورئيس للفرنكوفونيّة، ومثقّف رفيع، وملتزم في مبادرات اجتماعيّة خيريّة، هو طاقة الروح عنده: "فالحرف يقتل والروح يحيي" (٢ كور ٣/٦).

نال تربية مسيحيّة كغيره، في البيت وفي المدرسة لدى الآباء اليسوعيين، لكنّه ظلّ وفيّاً لها، ونمّاها ونما معها بالعلم والممارسة، فجمع بين العقل والإيمان، بين الإنجيل والحياة، علماً أنّ مأساة هذا العصر هي المسافة بينهما. أدرك الرئيس حلو أنّ الحقيقة المطلقة، عن اللّه والانسان والتاريخ، تبلغ إلينا بواسطة الوحي الإلهيّ والعقل البشريّ معاً، على ما أشار القدّيس أنسلموس أنّنا "بالإيمان نفهم، وبالفهم نؤمن". هذا ما جعل الرئيس حلو يجمع بين كنزين: الكتاب والإنجيل، المجتمع والكنيسة. فبمقدار ما كان حاضراً في المجتمع الوطنيّ والإقليميّ والدوليّ من خلال تعدّديّته، بمقدار ذلك كان حاضراً في الكنيسة الحجريّة مصلّياً وتائباً ومشاركاً في ذبيحة القدّاس والمناولة كلّ يوم أحد وعيد، وفي الكنيسة المارونيّة ملتزماً بالولاء لها ولرعاتها،

ومحافظاً على تقاليدها وتراثها، وحريصاً على دورها ورسالتها؛ وفي الكنيسة جسد المسيح السرّي، عضواً حيّاً وفاعلاً. فبات في كلّ ذلك وفيّاً للشريعتين الإلهيّة والخلقيّة، والصوت والضمير.

ورأى جمال اللّه وقيم الروح متجسّدة في لبنان، الوطن الذي أحبّ وخدم، وفي الإنسان الذي كرّم واحترم، وفي النشاطات والمهمّات والمسؤوليّات التي اضطلع بها. نقرأ في مذكّراته: "في المهام التي أُسندت إليّ تباعاً حتّى الرئاسة الأولى لم أسمع قَطّ أصواتاً أخرى غير صوت ضميري" (الجزء الأوّل، صفحة ١٨٢). وكان يعني الضمير المستنير بالحقيقة، كما أشار في مكان آخر من مذكّراته (المرجع نفسه، ص ٩٤). وعن لبنان قال إنّه تعبير عن أولويّة الروح، لأنّ نور الربّ على وجهه، ويحمل للعالم رجاء لا يخيّب، ونداء ورسالة. دوره كبير، لأنّه يسعى، بالمثل والعمل، إلى إحلال خلقيّة وطنيّة وإقليميّة أصفى، وإلى أعلان سموّ الحقّ (المرجع نفسه، ص ١٤٠). بهذا الإيمان مارس مسؤوليّاته، وعن هذا الإيمان دافع. وآلمه كثيراً أن يرى في الممارسة السياسيّة اليوم تشويهاً لوجه لبنان، وهدماً لرسالته، وهدراً لقيمه. وعن قداسة البابا قال للمرحوم حميد فرنجيّه، يوم كان وزيراً للخارجيّة، وشارل حلو سفيراً لدى الفاتيكان، وسأله الوزير فرنجيه، بعد لقاء مع البابا بيّوس الثاني عشر: "كنتَ يا شارل في حالة خارقة، وكأنّك شربت كأس شمبانيا"! فأجاب: "هو أنّي أرى في البابا ليس فقط رئيساً وأباً لمئات الملايين من المؤمنين، ولا الحبر المملوء عطفاً على لبنان، بل وخاصّة ممثّلاً للكلمة المتجسّد وانعكاساً لوجهه"

(مذكّراته، الجزء الأوّل، ص ١٤٣). بهذه النظرة مارس مهمّته الديبلوماسيّة، وكشف وجه لبنان، الذي تولّى بروح المسؤوليّة الحفاظ على تراثه الثمين في عهد رئاسته، وقد قال في بدايتها، أيلول ١٩٦٤: "هذه الجمهوريّة الصغيرة، التي أرئس مصيرَها، هي في الحقيقة أمبراطوريّة الروح الفسيحة. من هذا القبيل، لبنان مدعوٌّ ليبقى. هذا هو عندي قانون الإيمان" (مذكّراته، الجزء الثاني، ص ٤٧).

وفي خطاب الوداع، الذي وجّهه إلى اللبنانيين قبل نهاية ولايته بثلاثة أيّام، عاد فأعرب عن طاقة الروح عنده. قال: "نحن البلاد التي يشكّل فيها حبّ اللّه والإنسان سبب العيش ومبرّر وجود الدولة. ولذا، نحن منفتحون في آنٍ، بعضنا على بعض، ومعاً على الكون بأسره. إنّنا نعطي صورة عمّا ستصبح البشريّة في المراحل النهائيّة لسيرها الطويل والبطيء نحو المحبّة والسلام. أمّا أنا، فاعتباراً منّي أنّ نكران الذات مرتبط جوهريّاً بطابع السلطة المقدّس، أظنّ أنّي وضعت كلّ شيء، الأتعابَ والأفراحَ، في خدمة لبنان، تاركاً للتاريخ، وهو الديّان بالنهاية، أن يحكم على عملي إيجاباً أو سلباً، أنا الذي سعيت لأن يَظهرَ لبنانُنا المحبوب للبنانيين أوّلاً، ثمّ لإخوانهم العرب، وأخيراً للعالم أجمع، بوجهه الصالح والنقيّ والمشع" (مذكّراته، الجزء الرابع، ص ٩٧ و٩٨ و٩٩ و١٠٣).

هذه النظرة الروحيّة إلى لبنان، رافقته في كلّ مراحل الحياة. نقرأ على سبيل المثال في محاضرة ألقاها سنة ١٩٤٨ في الندوة اللبنانية: "إنّ مبرّر وجود لبنان هو الشأن الروحيّ والخلقيّ، ذلك أنّه بطبيعته بلد

الحريّة والعدالة والحبّ، ولذلك بدا لأعين العالم أنّه بلد الملجأ للناس وللمبادئ" (مذكّراته، الجزء الخامس، ص ٧١ و٧٣).

ويضيق الوقت، لاستخراج طاقة الروح عند الرئيس شارل حلو، المميّزة بالإيمان المعاش وتقوى اللّه والخلقيّة الرفيعة، من كتاباته المتنوّعة وبخاصّة ممّا كتب على التوالي حول: البيت اللبنانيّ وأسسه الخلقيّة، على مفترق الروحيّ والزمنيّ، أغناطيوس دى لويولا، ما ننتظر من الكاهن، الصوم الكبير، حول إعلان قداسة مار شربل، الخلقيّة الطبيّة، بكركي أيضاً، صوت البطريرك، مار مارون والموارنة، ما أؤمن به، البابا ونحن، عيد الفصح، وغيرها من أمثالها (أنظر مذكّراته، الجزء الخامس).

ولا يسعني، والحالة هذه، إلاّ أن أنهي بما ودّعنا به الرئيس شارل حلو، قبل عشرة أيّام من وفاته. التقينا ككلّ سنة، ليلةَ الميلاد، في دارته، حيث اعتدنا، مع أسرة دارته، وأصدقاء المدرسة الرسميّة في كسروان، والمحسنين القيمين على تليلوميار، ومعاونيه في مطاعم المحبّة، الاحتفالَ بقدّاس العيد.

في تلك الليلة، وكعادته، أضفى الرئيس حلو، على الجوّ المفعم بالروح، من إيمانه وتقواه، ووقاره ووداعته، المزيد من الخشوع والبساطة والفرح؛ وكلّها تحاكي جمالات تلك الليلة المقدّسة في بيت لحم منذ ألفي سنة. وتحلّقنا، بعد المائدة السريّة، حول مائدة المحبّة، فتبادلنا التهاني بالعيد؛ وكنّا في ختام يوبيل الألفين، الذي يذكّرنا بحجّنا الكبير نحو بيت الآب في السماء، ولم نكن ندري في ذاك القدّاس المميّز أنّنا على موعد مع بلوغ الرئيس عتبة الملكوت.

وبما أنّ "المحبّة هي التي تبقى" على ما يقول بولس الرسول (١ كورنتس ١٣/١٣)، راح الرئيس حلو يعطي من قلبه وعلمه مؤسّسات، كان هو في أساس إنشائها: مطاعم المحبّة، وأصدقاء المدرسة الرسميّة، وتليلوميار. وجعل من دارته الخليّة للقاء المسؤولين عنها، وشعاره في هذه المبادرات كلمة بولس الرسول: "العلم ينفخ والحبّ يبني" (١ كورنتس ١/٨).

كلمة النائب السيّدة بهيّة الحريري

مُمَثّلةً بالسّيدة هيفاء الأمين الدرزي

مجسِّدُ المجتمع اللبنانيّ

أيّها الحضور الكريم..

لقد شرّفتني سعادة النائب السيّدة بهيّة الحريري بأن أقول كلمتها في هذه المناسبة الغالية والعزيزة بسبب وجودها الاضطراريّ خارج لبنان..

كثيرة هي المناسبات التي أقف فيها متحدّثة، وكثيرة هي المواضيع، وهذا شأن من يعمل في الشأن العام.. وكلّها تتطلّب دقّة ومسؤوليّة.. إنّ كلّ قضيّة تعني الإنسان والوطن يجب أن تأخذ منّا الجهد الكافي، ويجب أن نعطيها العناية والاهتمام اللازمين إذا كنّا فعلاً في موقع المسؤوليّة ونجسّد أحلام وآلالام أهلنا ووطننا.. إلاّ أنّ الحديث عن شارل الحلو يشكّل قضيّة جامعة يتطلب فهماً عميقاً للشخصيّة اللبنانيّة ومقوّماتها وتنوّعها وانفتاحها وثقافتها.. إنّ فخامة الرئيس الراحل كان يجسّد المجتمع اللبنانيّ بكلّ عراقته وحداثته وتفاعله مع ذاته ومحيطه والعالم..

أيّها الحضور الكريم..

عام مضى على غياب فخامة الرئيس الأستاذ شارل الحلو.. الرجل الذي اختصر بحياته تاريخ لبنان الحديث.. لبنان الاستقلال والحريّة والديمقراطيّة..؛ وشكّل بشخصه ذروة الازدهار والتألّق والخيارات الصحيحة والصعبة.

جاء شارل الحلو إلى سدّة الرئاسة تطوّراً طبيعيّاً للمجتمع اللبنانيّ وإرادته بالخروج من ظلمات الماضي إلى نعيم التنوّر والمعرفة.. لبنان العدالة وتكافؤ الفرص..

إنّ شارل الحلو جاء من القلم ومن الرأي ومن العلم ومن صلب المخاض التاريخيّ الذي عاشه لبنان في بداية الستينات للانتقال من دولة الإقطاعات والمحسوبيّات إلى دولة المؤسّسات.. تلك الحقبة البيضاء التي أسّست لتجربة رائدة آمن بها اللبنانيّون جميعاً ورأوا فيها ملاذاً لأحلامهم وتطلّعاتهم لبناء الدولة الحديثة الديمقراطيّة الجامعة والشاملة.. دولةِ التنوير العام من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب.. لكنّ هذه التجربة لم يُكتب لها أن تستمرّ وأن تؤسّس للاستقرار الذي هو جوهر الازدهار..

إلاّ أنّنا اليوم نُحيي ذكرى غيابه الأولى، بعد أن انتصر لبنان على تحدّياته وصعوباته، واستطاع أن يؤكّد أنّ وحدة أبنائه وعيشهم المشترك وسلامة أراضيه ونظامه الديمقراطيّ والحرّيات المصانة هي مقدّسات جامعة ومحلّ توافق تامّ.. فلقد بذل اللبنانيّون جميعاً كلّ طاقاتهم، وضحّوا بالغالي والنفيس من أجل أن يبقى لبنان سيّداً حرّاً

مستقلاً.. وإنّ فخامته بقي إلى آخر لحظة النموذج الذي يُحتذى به بولائه وإيمانه العميق باللّه ووطنه لبنان.. فشارل حلو هو كتاب اللبنانيين جميعاً، الذي يجب أن نحفظه جيّداً وندرّسه للأجيال كي يبقى نموذجاً للمحبّة والخير والعطاء.. لم يجعل فخامته من الرئاسة زمناً تغيّر فيه وعيه وأداؤه وقناعاته عمّا قبلها وما بعدها.. لقد جعل فقيدنا الراحل من الإنسان والمجتمع اللبنانيّ قضيّته وغايته على امتداد مراحل حياته.. وإنّ حضوره في وجدان اللبنانيين بقي حاضراً ومستمرّاً باستمرار عطاءاته وأدائه الإنسانيّ والاجتماعيّ.. فلم تكن السياسة هي الغاية، بل كانت هي الوسيلة من أجل قيام مجتمع العدالة والمساواة.. وما كان اهتمامه بالمسنّين إلاّ دليلاً قاطعاً على حقيقة شارل حلو الانسان، الذي أغنى السياسة في لبنان، وأضاف إليها أخلاقه وإنسانيّته..

أيّها الحضور الكريم..

إنّ قدر لبنان، ومنذ كان، هو أن يواجه أبناؤه التحدّيات الصعبة كي يبقى.. وينتصر.. وإنّ اللبنانيين علّموا العالم كيف ينظرون إلى الأمام دائماً ويتسامحون ويتحابّون ولا ينظرون أبداً إلى الوراء.. وجعلوا من إنسانهم ثروتهم وغايتهم.. وشارل حلو هو من أهمّ كنوز هذا الوطن الذين وجدوا أنّ خلاص اللبنانيين في إرادتهم الصلبة والنزوع الدائم كي يكون لبنان وطناً ليس ككلّ الأوطان..

عشتم وعاش لبنان

شارل حلو الإنسان

عندما سأله الصحافيّ الفرنسيّ Jacques Chancel عن كيفيّة كتابتهِ الوطنَ، قال: "أفكّر فيه، أحلم، mais je l'écrivait très mal لكنّني أكتبه بشكل سيّئ. ككلّ ما ومن نحبّ، نريد التعبير عنه بلا انتهاءِ الكلماتِ والصمت، ولا نستطيع. نرى كلماتِنا عاجزةً عن وصفه للآخرين. فالوطن كما الحبّ، وجب عيشهما فقط".

هكذا أنا التي عشت شارل حلو الإنسان، وأحببت، تُراني عاجزةً عن وصفه للآخرين. أفتّش عن الكلمات فلا أجدها. وإن وجدتها أشطبها لأبحث عن غيرها. ثمّ أمزّق الورقة تلو الورقة، إلى أن رأيتُني أقول لشعوري وذاكرتي في عمق قلبي وعقلي: هيّا انسكبي، فتأبى عليّ نافرةً من سجن الأحرف..

فعذراً شارل حلو، وعذراً محبّيّه لضعف تعبيري عنه كإنسان. أنّى لي أن أفيَه حقَّه في تظهير قيمته كإنسان؟!

* * *

قد يتساءل البعض عن الرابط بين رئيسٍ شيخ في السابعة والثمانين من العمر، وصبيّةٍ مثلي في الثالثة والعشرين، ولا سيّما أنْ ليس من صلة قربى ولا معرفة عائليّة أو ما شابه..

أنا نفسي، لا أعرف لماذا تعلّقت به إلى هذا الحدّ.

تعرّفي به كان بدافع الحشريّة؛ وأنا طالبة في الدراسات العليا للصحافة، رغبت في أن أكتشف شارل حلو الصحافيّ، بل ربّما، وأيضاً، لأنّه سببٌ للمفاخرة بكونه رئيساً سابقاً للجمهوريّة. لكنْ، سرعان ما بدأت في اكتشاف شارل حلو الإنسان، فأيقنت أنّ الصحافة والرئاسة أصغر ما يليق به من ألقاب. ورغم ذلك، أفرحه أن تحمل رسالتي اسمه كصحافيّ.

في جميع الأحوال، كلّ ما أعرفه أنّه يجعلك تحبّه، من كلّ قلبك، ورغماً عنك، علماً أنّه هو الذي يبادرك بالمحبّة: يقوم بالخطوة الأولى، وبخطوات متلاحقة.

أعترف أنّ فراغاً كبيراً أعيشه بعد رحيله، لأنّه كان يحيط من يحبّه باهتمامٍ عظيم: يسأل دوماً عنه، يطلب رؤيته باستمرار، ويشاركه أحزانه وأفراحه بصدقٍ تامّ ومن دون أيّة مصلحة.

أعترف أيضاً، أنّني أشتاق إليه، لأنّني كنت أجد في منزله واحةَ سلامٍ وراحة؛ هو عالمٌ آخرُ بعيدٌ عن هموم هذا العالم، تلك الهموم الماديّة التي تحرّكها المصالح والمكاسب والمناحَرات والسياسات والاقتصاد والأشغال.

كان بيته كالمنسكة في قلب العالم؛ والحديثُ معه ينقلك إلى دنيا أخرى.

فهو اكتفى.. تعالى عن صغائر الأمور.. أصبح الحبُّ همَّه الأوّلَ والأكبر؛ ولا مساومة في حبّه: فإمّا أن يحبّك حقّاً، وإمّا أن يبتعدَ عنك إذا لم يستلطفك.

أقول: يبتعد عمّن لا يستلطفهم، لأنّني لا أستطيع أن أقول إنّه يكرههم؛ فشارل حلو لا يكره أحداً، بل كان يسعى إلى حبّ الجميع والمسالمة.

يفرح الفرح كلَّه بانتصار "الحب" في حكايته معهم، بعد سوء تفاهم كبيرٍ أو صغيرٍ، بعد جفوةٍ بعيدةٍ أو قريبة. فمثلاً كان شارل حلو يردّد دوماً ما كان بينه وبين سعيد عقل من سوء تفاهم، ثمّ كيف أصبحا صديقين حميمين.

وفي حبّ شارل حلو، لا مصلحة ولا طبقيّة ولا أفضليّة... فهو يحبّ الإنسان بقيمته المجرّدة: كعادته، كان يجلس في مملكته الصغيرة، بين الكتب والأرائك، يفكّر في من يحبّ ويشتاق إليهم. الهاتف بجانبه، يتّصل بهم ويدعوهم إلى داره – بلاط المحبّة، يعبّر عن شوقه لرؤيتهم، ويضرب لهم المواعيد، وقد يُسمعهم بعض كلمات العتب "المهضومة" (والعتب من كثرة المحبّة).

مرّةً، دعا رئيسَ جمهوريّة سابقاً ومطراناً حاليّاً إلى اجتماع، ودعاني إلى الاجتماع نفسه؛ فانتفضت أنطوانيت، رفيقتُه وكاتمةُ أسراره، لتقول له: "يا فخامة الرئيس، داعي رئيس جمهوريّة ومطران، لشو عزمت رانيا كمان، هيدي طفلة بيناتن. شو بدّك فيها؟!"

فأجابها بسرعة بديهيّته المعهودة: "ودخلِك، شو بدّي فين هنّي؟!"

طبعاً، لم يقصد قلّة الاهتمام لأمرهم؛ فهو لم يكن ليدعوهم لو لم يكن يهتمّ لهم. ولكن، ما قصده أنّه لا يدعو أحداً إلى زيارته لأنه صاحب مركز أو مقام (رئيس، وزير، مطران...)، بل لأنّه يحبّه لشخصه المجرّد من الألقاب.

هكذا هو شارل حلو: يحبّ الجميع على اختلاف مستوياتهم، بمساواة ومن دون تمييز (كان يهتمّ مثلاً بخادمته Soum أكثر بكثير من اهتمامه بأيّ صاحب منصب). واستطاع شارل حلو، بهذه الطريقة، أن يجمع حوله عائلة موحّدة، فيها من كلّ الطبقات الثقافيّة والاجتماعيّة والماديّة؛ عائلة، لا جامعَ مشتركاً بين أفرادها سوى محبّةِ شارل حلو. فهو يخبر كلّ فردٍ منها عن أعمال وأقوال وميزات الأفراد الآخرين، فخلق بذلك رباط محبّة بين أحبّائه أنفسهم من دون أن يدروا. هذا ما يجمعني اليوم مثلاً بجو الخوري حلو وجورج غانم وسهيل مطر وأنطوانيت قازان والحرّاس والخدم والممرّضات وسائر أصدقائه؛ وقد كان يجمعنا في غير مناسبة. لقد كان شارل حلو قادراً على مجالسة الطفل كمجالسته الشيخَ والشاب، والمهمّش والشهير، والجاهل والمثقّف..؛ فهو يجالس الإنسان الذي في كلٍّ منهم، ويقدِر قيمته، ويتصرّف حياله، ودوماً، كالتلميذ المتحفّز لالتقاط عبارةٍ طريفة أو حكمةٍ جديدة، يحفظها ويتأمّل فيها ويردّدها...

فشارل حلو، رغم علمه وثقافته وخبرته وسعة اطّلاعه، كان يضع نفسه دوماً في موقع التلميذ، ولم يعتبر نفسه يوماً أستاذاً. كان يقول لي، وهو

"Je suis de nouveau un étudiant, de nouveau peut être un petit garçon qui admire, s'interroge, regarde avec beaucoup d'attention, et avec le désir de savoir, non pas seulement ce qu'il a à faire mais ce qu'il est"

في السابعة والثمانين: "أنا، يا ابنتي، بعرف فرنسي منيح، ولغتي لا بأس بها. هلّق عم قوّي حالي بالعربي والإنكليزي!" من هنا ليس مستغرباً جوابه لأحد الصحافيين، الذي سأله ماذا سيفعل بعد انتهاء ولايته في رئاسة الجمهوريّة، إذ قال له بالفرنسيّة:

إضافة إلى حبّ التعلّم والاكتشاف، كان شارل حلو يحبّ الأطفال ويشاطرهم بعض طباعهم؛ فقد كان يملأ البيت حياةً بصراخه المتعالي، وجعاً أو "غنجا" في غالب الأحيان، وبضحكته الرنّانة ومناداته من "قاطع إلى قاطع" بكلمات لا تُقاس إلاّ بالهضامة، وبخطواتٍ متثاقلة متقاربة هي أشبه بخطوات سنوات مدارج الطفولة الأولى...

شارل حلو، الطفل قلباً والشيخ عقلاً، ما أكثر ما كان يتّفق مع صديقه الصغير برنار على حيلةٍ للحصول على لوح شوكولا يستلذّانه بين جارة ممرّضة وتنبيه أخرى...

أمّا الشوكولا فقد كان اللذّةَ التي تضاهيها لذّةٌ في حياته سوى وجودِ المرأة حوله. فلقد كان محاطاً بالسيّدات والممرّضات حتى آخر لحظة.. وكيف لا تكون المرأة مثارَ اهتمامه وعنايته، وهو المرهف الإحساس، الشغوف بالجمال يَعشقه في خَلْقِ "الكلمة" وفي الكلمة..

وأمام جمال الكلمة، كنت أستغرب، بدايةً، بعض حركاته وتعابير وجهه، إذ بعد سماعه كلمةً حلوة يُغمض عينيه ويرفع جبينه لكأنّه في

غيبوبة عمّا حوله، تنفرد الروح بما سمعته الأذن، تستمتع بروعته قبل أن تستودعه ذاكرةَ الطيب زادَ تعزيةٍ للحظةِ ألمٍ قد تأتي؛ وكثيراً ما كان يردّد، أمام زوّاره، كلمات مسّت قلبه واستوطنت وجدانه!

وعودةً إلى جمال المرأة، فشارل حلو يخشع أمامه. فلقد ناهز التسعين من دون أن يتوقّف يوماً عن استلطافها وملاطفتها تستوقفه عيناها، شفتاها، شعرها، كلماتها... هو يختار الجميلات بدراية الذوّاقة وكأنّه الشابّ في زهوة العمر. كان يعطي تعليماته للجميع: "تزورني امرأة جميلة، فلا تزعجوني!"

رائعةٌ نظرته للمرأة، لأنّها نظرةٌ إلى قيمةٍ.. أيّةِ قيمة!

رائعٌ إحساسه بالمرأة..

رائعٌ تقديره لها..

كيف لا، وهو الذي أحبّها وتعلّق بها إلى حدّ الجنون.. هو الذي أُغرم بنينا طراد، وتحدّى الجميع ليتزوّجها.

لن أتكلّم عن والدته ونينا، لأنّني مهما قلت فلن أستطيع أن أقول أفضل أو أكثر منه. بل أدعو إلى قراءة كتابه "Nina ou la quête de l'impossible"، هذا الذي يهزّ كياني كلّ مرّة أعود إليه. ولعلّه من المستغرب أن يكتب الرجل عن زوجته، بدقّة وتفصيل وحبٍّ لافت، لأنّنا اعتدنا على قراءة رجال يكتبون عن حبيبة أو عشيقة.. شارل حلو كتب عن زوجته الحبيبة (يستوقفني مقطعٌ عن الحبّ في العلاقة بين الزوجين، من الكتاب المشار إليه – الصفحة ١٣)

وشارل حلو كتب عن الأمّ الحبيبة، كما كتب عن الزوجة الحبيبة. فَلأنتَ تفيض دمعاً فحسب حين تقرأه عن أمّه، في الجزء الأوّل من مذكّراته (Mémoires. Tome I. Prime Jeunesse)!

ثمّ ليس لي ما أضيف على ما قرأت لشارل حلو في المرأة سوى أنّه كان يبحث عن أمّه في كلّ امرأة؛ وحين وجد شيئاً منها في نينا، تزوّجها! والمرأة عنده ليست الجمال وحسب، بل الحنان والقلب والعقل والذكاء والقدرة. آمن بقدرتها، وكان المدافع الأوّل من حقوقها، لا بل المطالب بها. (مقالة له عام ١٩٩٤، ينتقد فيها معهد القضاء لعدم قبوله طلبات جميع المرشّحات للقضاء)

* * *

"Il n'y a pas une tête bien faite sans un cœur généreusement nouri et longuement exercé".

حكمةٌ أطلقها شارل حلو كمبدأٍ في المطلق، وإنّي أستعملها اليوم لأصفه وأعبّر عنه هو في المطلق أيضاً.

شارل الحلو المحامي

في الذكرى الأولى للغياب، نستوقف الزمن لنتأمّل أبلغ مرحلة من عمره، التي تجمع القيم اللبنانيّة في أبهى ما تتجلّى بها المحاماة والصحافة والسياسة.

الرئيس شارل حلو، مالك الكلمة، ربيبةِ العطر الذي يفوح من العبقريّة، عَرَفَهُ لبنان إنساناً كبيراً، له من دنياه مقامٌ خيِّر وإشراقةُ شموخ وعطاءٌ يؤلمه الاكتفاء.

جمع الأصالةَ في النَسَب، والنُبلَ في النّفس، والسَعةَ في الثقافة. ندب نفسه للصحافة، فكانت كلمتُه فيها الكلمةَ الحرّة الناقدة الموجّهة والصلبة التي لا تلين.

ودخل معترك السياسة، يعمل حبّاً بالناس، وتمرّس بالإخلاص في الوطنيّة، يؤدّي المهمّة في خدمة المواطنين عطاءً ووفاء، يتفرّد بعمق الهدوء ورصانة الفكر وشموليّة الثقافة، ما حمل نوّاب الأمّة على انتخابه لاعتلاء كرسيّ الرئاسة الأولى في أحد عهود لبنان المطلّة على الضراوة والخطورة في المصير، فتبوّأها بقيادة حكيمة واعية نزيهة مجرّدة لا مكان فيها للعصبيّة والتطرّف والأنانيّة.

لكن، حسبي وأنا نقيب سابق للمحامين، أن أتناول ما بقي متناغماً من القلب إلى الذاكرة ومن تبقى من ذكرى شارل حلو المحامي بعد أن أسهب من سبقني إلى تناول باقي الأوجه الإنسانيّة في شخصيّة الرئيس شارل حلو.

فالمحاماة كانت عند الراحل الكبير البداءة والنهاية في عمره المديد. فما دوّى صوته إلاّ في سكون صمته، يدرس ويناقش ويشترع ويحكم، جاعلاً من نفسه المقياس الذي يقيس به القوانين، فما استأثر به قَدَرٌ ولا استأثر هو بقَدَر، حتّى كاد عطاؤه في الدرس والتشريع والدفاع، وهو هانئ براحة ضميره وشمول علمه وسعة ثقافته، أن يكون أخذاً وأخذُه عطاءً.

وكأنّ القلم الذي امتدّت به يده السمحاء هو القلب الذي ينبض بالصدق والوفاء والعقل الذي يعمر بالمعرفة الهادية ويزخر بالوعي السليم، وإذا الكلمة معه تدع كلّ شيء دونها لتجد كلّ شيء فيها، وإذا نهجه في المحاماة قوّة محشودة تعظّم وتزداد وتهرق لا لتموت بل لتحيا في غير نفسٍ وجسد.

ذاك أنّ المحاماة رسالة ملازمة للفضيلة، توّاقة إلى العدل والآخاء والرحمة، محبّة للحرّية، منتصرة لها، ثائرة على كلّ ظلم وكلّ قهر، مجلّية في الحفاظ على القيم وفي الحفاظ على الوطن.

والمحاماة مناقبيّة وأخلاق والتزام بقسم، باللّه وبالشرف لصيانة الحقوق والدفاع عن المظلومين وحفظ الحرّيات وصون المقدّسات والكرامات.

هي بالحقيقة رسالة قبل أن تكون مهنة...

ومن خلال هذه الرؤيا للمحاماة ودنياها، يتراءى لي الشاب المثقّف الواعد شارل اسكندّر حلو، الحامل شهادة الإجازة في الحقوق من مدرسة الحقوق الفرنسيّة في بيروت، بقرار لجنة خاصّة مؤلّفة من أساتذة فرنسيين كبار في كلّيات الحقوق في بيروت وباريس وليون وليل، مؤرّخة في ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٣، متقدّماً لحضرة نقيب المحامين آنذاك المرحوم الياس نمّور، طالباً تسجيله متدرّجاً في مكتب المرحوم جورج بشاره أمين سرّ النقابة في ذلك العهد. مجلس نقابة المحامين يقرّر قبول شارل اسكندر حلو المولود في ٢٥ أيلول ١٩١١ محامياً متدرّجاً في مكتب المحامي جورج بشاره اعتباراً من ٦ كانون الأوّل ١٩٣٣.

ورحلة المحاماة لم يقم بها شارل حلو منفرداً في عالم المحاماة الواسع. فسرعان ما اتّحد بشريكة حياته نينا طراد المحامية المسجّلة في نقابة المحامين بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٣٢ في عهد النقيب المرحوم دعيبس المرّ وبقرار اتخذ بالأكثريّة بعد نقاش طويل حول حقّ المرأة بممارسة مهنة المحاماة، وكان مجلس النقابة يومها مؤلّفاً من النقيب دعيبس المرّ والأساتذة جورج بشاره أميناً للسرّ، وفؤاد الخوري أميناً للصندوق وميشال تلحمه مفوّضاً لقصر العدل، وجورج يزبك، صلاح لبابيدي، عزيز الهاشم، فؤاد رزق وكميل شمعون أعضاء.

وبتاريخ ٢ أيّار ١٩٤٠، وبكتاب باللغة الفرنسيّة يتقدّم المحامي المتدرّج شارل حلو بطلب قيده على جدول المحامين العاملين.

Beyrouth, le 2 Mai 1940

Monsieur le Bâtonnier et Messieurs les membres du Conseil de l'Ordre des Avocats. BEYROUTH

Je soussigné, Charles Helou, de nationalité libanaise, licencié en droit du mois de Novembre 1933, admis dès cette époque au stage au Cabinet d'avocat de Me Georges Béchara, ai l'honneur de solliciter de votre bienveillance, mon inscription au tableau des avocats à la Cour.

Je vous prie d'agréer, l'expression de mes sentiments respectueux.

مارس شارل حلو المحاماة كمهنة بشراكة زوجته نينا طراد ردحاً طويلاً من الزمن.

وبالرّغم من تعاطيه نشاطات كثيرة في الحقل الصحافيّ وفي العمل السياسيّ، بقي محامياً أصيلاً يتعاطى الدفاع أمام المحاكم وإعطاء الاستشارات القانونيّة.

في ممارسة المحاماة، كان يتردّد كثيراً على مكتب المغفور له النقيب الشيخ بشاره الخوري الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهوريّة وصار للمحامي شارل حلو حظوة لدى فخامته شجّعته كثيراً على تعاطي السياسة.

ومشوار المحاماة متلازماً مع الصحافة والسياسة يستمرّ إلى أن يتبوّأ النائب السابق والوزير شارل حلو رئاسة الجمهوريّة اللبنانيّة، فيترك المحاماة لستّ سنوات فقط يعود بعدها لاعتناق الرسالة تاركاً أمور المهنة ومشاغلها للأصدقاء الذين كان على تواصل دائم معهم، يناقش الأمور القانونيّة وشؤون المعاهدات العالميّة والمنظّمات الدوليّة والأسباب الموجبة لكلّ قانون يصدر أو قيد الدرس قبل الصدور.

وللكلام على مشوار شارل حلو في المحاماة، لا يمكن أن يتمّ إلاّ إذا ذكرنا تعاونه الوثيق مع المحامي الأديب المفكّر المرحوم أنطون قازان.

اتصالات صباحيّة يوميّة تتناول شؤون القضايا القانونيّة ومواثيق وأنظمة المنظّمات الدوليّة، وكل ما له علاقة بالقانون الدوليّ الخاصّ والعامّ، وخصوصاً ما يتعلّق بالمنظّمات التي تُعنى بشؤون الإنسان والعدل والحريّة في العالم.

أنطون قازان القامة الكبيرة في الفكر والأدب والمحاماة، كان دائماً إلى جانب الرئيس حلو بالدراسة والمشورة القانونيّتين.

أمّا ذكريات الرئيس شارل حلو مع نقابة المحامين خلال مدّة رئاسته للجمهوريّة اللبنانيّة، فهي كثيرة ومؤثّرة، وسأتوقف عند أربع منها فقط:

١- مساعدته في إقرار قانون تنظيم مهنة المحاماة رقم ٨/ ٧٠ تاريخ ١١ آذار ١٩٧٠.

٢- رعايته وحضوره احتفال اليوبيل الذهبيّ للنقابة في ٦ تشرين الأوّل ١٩٦٩ في عهد النقيب المرحوم فايز حدّاد في قاعة الخطى الضائعة في قصر عدل بيروت، ومنحه كلّ من النقابة والنقيب وسام الاستحقاق اللبنانيّ المذهّب.

٣- إقراره عقد مساقاة بين الدولة اللبنانيّة ونقابة المحامين على أرض العقار /١٠٢٧/ الأشرفيّة لمدّة تسع وتسعين سنة لتشييد دار النقابة ونادٍ للمحامين.

٤- رعايته وحضوره شخصيّاً، بتاريخ ٣٠ تمّوز ١٩٧٠، احتفال النقابة بوضع الحجر الأساسيّ لبنائها الموعود.

وهذا ما حمل مجلس نقابة المحامين لاتخاذ قرار بتاريخ ٢٩ أيلول ١٩٧٠، برقم ٤١٤٦، أورد في كلماتي، للذكرى والشهادة، نصّه الحرفيّ:

صورة القرار الصادر عن مجلس نقابة المحامين في بيروت
بتاريخ ٢٩ أيلول ١٩٧٠ تحت رقم ٤١٤٦

نوّه حضرة النقيب بالاهتمام الذي خصّ به فخامة الرئيس الأستاذ شارل حلو نقابة المحامين في أثناء ولايته، ولا سيّما في السنتين الأخيرتين، وبالعناية التي أولى بها قضايا النقابة وأمورها. فقد ساعد بعنايته ورعايته على إقرار قانون تنظيم المهنة الجديد وساعد النقابة في الحصول على عقد مساقاة مع الدولة على قطعة الأرض في جوار قصر العدل لبناء دار النقابة نادي المحامين.

فأيّد المجلس ذلك، وقرّر شكر فخامة الرئيس الأستاذ شارل حلو على عنايته وعاطفته الطيّبة وتداول المجلس حول كيفيّة إعلان امتنانه من الرئيس الأستاذ شارل حلو وتسجيله له هذا الامتنان، واتّخذ القرار الآتي:

"لمّا كان فخامة الرئيس الأستاذ شارل حلو في أثناء ولايته قد أولى نقابة المحامين في بيروت اهتماماً خاصّاً، وخصّ قضاياها بعناية ورعاية فائقة، وأظهر من العاطفة لنقابته ما أدّى إلى تعزيزها وتعزيز رسالة المحاماة فخدمها وخدم لبنان بكلّ تفانٍ وإخلاص، وساعد بنوع خاصّ على إقرار قانون المحاماة الجديد وعلى حصول النقابة على قطعة أرض لبناء نادي المحامين، هذا إلى جانب إنجازات كثيرة غيرها حقّقتها النقابة برعايته".

"ولمّا كان يطيب لمجلس النقابة تسجيل ذلك لفخامة الرئيس الأستاذ شارل حلو بعد نهاية ولايته وتسجيل اعتزاز النقابة به كرئيس كبير للبنان وكعلم من أعلام المحاماة".

"فقد قرّر المجلس تقديم هديّة رمزيّة لفخامة الرئيس الأستاذ شارل حلو عربوناً لامتنانه وعرفاناً بالجميل".

واهتمام الرئيس شارل حلو بالمحاماة وبنقابتها زاد ازدياداً ملحوظاً بعد تركه منصب الرئاسة، فإذا به في تشرين الثاني من العام ١٩٧١ يحضر شخصيّاً جلسة المناقشة الختاميّة للندوة التي عقدتها النقابة يومها حول شهادة الكفاءة لممارسة مهنة المحاماة وتنظيم تدرّج المحامين وإيجاد فرص عمل جديدة للشباب منهم.

مداخلات الرئيس المحامي شارل حلو في تلك المناقشات كانت موجِّهة ومفيدة، وتحتوي على نصح كبير وعلى اهتمام ملحوظ بقضايا "المهنة الرسالة" التي أحبّها شارل حلو وكانت دائماً أمّه الثانية، أحبّها بقدر ما أحبّ أمه وزوجته.

الرئيس شارل حلو، قُدِّر له أن يرعى ويحضر اليوبيل الذهبيّ للنقابة عام ١٩٦٩ رئيساً للجمهوريّة، كما قُدِّر له أن يشارك في اليوبيل الماسيّ للنقابة عام ١٩٩٤ فكتب بتاريخ ٣٠ آب ١٩٩٤ ما حرفيّته باللغة الفرنسيّة:

En 1969, je fus invité, comme Président de la République et comme avocat, à fêter le cinquantenaire du Barreau de Beyrouth.

"Le Liban, dis-je, apparaît comme une illustration et comme une incarnation du droit".

"Chaque fois que je viens au palais de justice et à l'aile consacré au conseil de l'Ordre, j'éprouve le sentiment de l'absent qui retrouve son foyer. Il est,

pour nous tous, avocats, le lieu de naissance de ce que nous avons aimé et que nous avons choisi comme point de départ dans le monde.

"Nous avons appris ici comment l'homme vit du droit en le proclamant, comment il s'élève jusqu'à la tendresse et à l'union avec ses collègues, comment aussi il se réchauffe à la douceur de l'amitié en multipliant les espérances des nouveaux avocats, et en rendant aux plus âgés leur vigueur".

J'évoque tous ces visages, ceux des enseignants ainsi que ceux des juges et des plaideurs comme autant d'illustrations d'une justice sereine dans ses robes noires et ses rabats immaculés.

محطّة مهمّة في حياة الرئيس شارل حلو المحامي، كانت في ١٤/١١/١٩٩٢ عندما مُنِحَ ميداليّة نقابة المحامين الذهبيّة للممارسة الطويلة، أي تقدير النقابة للمحامين الذي يمارسون المهنة أكثر من خمسين سنة.

تقديره ومحبّته للمحاماة ونقابتها جعلته على صداقة ومحبّة وتقدير مع كلّ النقباء، وأنا آخرهم من الذين عايشوه.

أفاخر بما كان يناديني به وبما كان يخصّني به من عاطفة جيّاشة، وتعابير مؤثّرة، آمل أن أكون مستحقّاً لها. ولا أنسى أبداً أنّني كنت في عدد أصفيائه الذين حضروا في منزله قدّاس الميلاد عام ٢٠٠٠ قبل وفاته بأيّام معدودة.

أخيراً، وجواباً على السؤال:

ماذا تَبَقّى من الرئيس شارل حلو المحامي؟

أقول إنّه باقٍ، وبحضور لافت، في قلب وذاكرة المحامين كلّما دلهَمّ الأفق وكلّما اجتمعوا لأمر عصيب.

شارل حلو الإعلاميّ

بيروت التي مشت في شوارعها العريضة موكب جنازة الرئيس الراحل شارل حلو صباح التاسع من كانون الثاني ٢٠٠١، ليست المدينة التي ولد وترعرع فيها شارل حلو الفتى بين ساحة الدبّاس ومدرسة الآباء اليسوعيين المجاورة. و"الدولة" التي سارت وراء نعش الرئيس الرابع للجمهوريّة الأولى، لم تعد هي الدولة التي نظّر لها شارل حلو صحافيّاً وكاتباً، وأمسك بأختامها رئيساً في ستّينات القرن العشرين. لقد بدا المشهد سورياليّاً؛ كأنّ لبنان الراهن يشيّع إلى مثوى التاريخ آخر فصول لبنان الماضي الذي تحوّل إلى حكاية... جميلة.

في سنواته الأخيرة، وعلى رغم حرصه الشديد على البقاء في الضوء ثقافيّاً وإنسانيّاً، وعلى التواصل مع الحاضر الرسميّ بروتوكوليّاً، بقي شارل حلو مشدوداً بالسليقة والفكرة والمفاهيم إلى لبنانه القديم. فإذا قارن الوقائع عاد إلى منطق الماضي، وإذا ساجل وتحاور على صفحات الصحف فمع رجال الماضي.

ولأنّ قصّة الجنوب، الأرض المفتوحة على الصراعات والمقاومات منذ ولايته، هي نفسها بعد ثلاثين سنة، فإنّ معظم مقالاته وأحاديثه بقيت مركّزة على هذه القضيّة التي جلبت له عذاب اتفاق القاهرة وكلّ الانتقادات والأفكار الجاهزة التي خدشت صورة الرئيس المثقّف والنظيف، الحريص جدّاً على صورته. ولأنّه لم يؤمن يوماً بأنّ السياسة

هي فنّ وضع الخرافات في نصابها التاريخيّ، فإنّ غربته عن عالم السياسة الحاضر، ومرارته التي كان يغلّفها بالنكتة المرّة والفكرة اللمّاحة، لم تقنعاه بوقف تقديم التبرير تلو التبرير عمّا فعل وما لم يفعل. فالقدر التاريخيّ لا ينفصل عن أخطاء كثيرة، وشارل حلو الذي وضعه القدر بعد الهزيمة العربيّة سنة ١٩٦٧ في قدر إقليميّ ولبنانيّ صعب، لم يكن يؤمن بالقدر والمقدّر الذي يصفه بأنّه هالة من السحر الذي ينشر اللامعقول. قدر شارل حلو وصورته الشائعة تشبه صورة لبنان الجمهوريّة الأولى: ديمقراطيّ في مجتمع مدجّج بديكتاتوريّات الطائفيّة والحزبيّة والعشائريّة وحتّى العسكريّة في بعض المراحل. قوّته في ضعفه، تماماً، كتلك الفلسفة السياسيّة التي ابتُكرت لحماية لبنان الصغير، السريع المعطوبيّة، أي بالصداقات الدوليّة لا بالمغامرات الحربيّة... حداثته الفكريّة وآفاقه الدوليّة الواسعة وانفتاحه على العصر والعالم كانت تشبه "لبنان أستاذه ميشال شيحا"، الذي كتب عن لبنان "البلد الجسر بين الشرق والغرب الذي يجب حمايته دائماً من العنف". هذا العنف الذي مقته شارل حلو وفضّل عليه سياسة الضرب "بيدٍ من قطن"، وابتكار التسويات المغلّفة "بالالتباس الخلاّق"، للتوفيق بين مثالِ الفكرة وقساوة الواقع كي لا يقع البلد في المحظور الدمويّ.

لقد كان شارل حلو الرئيس صديق ديغول وعبد الناصر والبابا بولس السادس وليوبولد سنغور وجورج بومبيدو وفرانسوا ميتران، أكبر من لبنان الصغير الذي بدا بدوره أكبر من حجمه ودوره ومحيطه. لذلك ظهر كأنّ بداية نهاية لبنان ميشال شيحا وبشارة الخوري ورياض الصّلح وكلّ منظومته السياسيّة والفكريّة لاحت مع نهاية عهد شارل

حلو، حين شدَّت أهواء الشارع الحادّة والسياسات الفظّة البعيدة عن روح التسوية العزيزة على قلب حلو، الوطن الصغير صوب المجهول من الأزمات والثورات والحروب الصغيرة التي توِّجت بالحرب الكبيرة سنة ١٩٧٥. فكان حلو آخر رئيس للجمهوريّة قبل الحرب، التي اشتمّ رائحتها في حريق الطائرات المشلّعة التي دمّرها الكوماندوس الاسرائيليّ ذات ليلةٍ من كانون الأوّل ١٩٦٨، ثمّ عاينها متغلغلةً في العقول والنفوس خلال الأزمة اللبنانيّة—الفلسطينيّة، واللبنانيّة—العربيّة واللبنانيّة—اللبنانيّة التي انتهت موقّتاً باتفاق القاهرة سنة ١٩٦٩، كخيار بالاضطرار، بديلٍ عن اتّساع الانقسامِ وبالتالي الانفجار...

لا يتناقض شارل حلو الاعلاميّ أو الصحافيّ مع شارل حلو المحامي أو الديبلوماسيّ أو السياسيّ والرئيس أو الانسان. فالكلمة هي كيانه وسلاحه والفعل أو أوّل الفعل... وإذا كان كلّ انسانٍ يشبه ألمه، فإنّ شارل حلو يشبه قلمه الذي نزف ما اختزنه عقله وروحه من معارف وقناعات وقيَم فلسفيّة وميتافيزيكيّة. ورغمَ تكراره الدائم في سنوات المرارة والخيبة أنّ الناس لا يسمعون إلاّ ما حفظوه غيباً، وأنّ التاريخَ قضيّة رأيٍ عام لا أكثر، فإنّ شارل حلو بقيَ حريصاً حتى اللحظة الأخيرة على أن يترافع عن نَفسِه أمام الرأي العام على صفحاتِ الصحف وموجاتِ الأثير الاذاعيّ والتلفزيونيّ، مع يقينه الثابت أنّ الانسان يصدّق الشائعة التي ترضي أهواءَه، ولا يأبه للحقيقة المؤلمة التي تعاكس قناعاته أو ميوله.

طوال ثلاثين عاماً ونيّف لم ييأس شارل حلو من محاولةِ تصحيح القناعاتِ الساذجة بسلاح الكلمة العارية... فكيف لحاكمٍ مثله، أعزل إلاّ من الكفاءَة والكلمة، في مجتمع شرقيّ تماهت السياسة فيه، من أيّام أثينا، بالخطابات والحناجر والمسرح والجماهير، أن يقنعَ الناس أنّ احترام الحريّة ليس ضعفاً، وأنّ احترام القانون ليس ظلماً، وأنّ الهيبة ليست قوة وتعدّياً؟ ليس ضرورياً التذكير بشارل حلو رئيس التحرير في الـ Le Jour الذي خرّج على يده صحافيين كباراً، أو شارل حلو صاحب المقال الافتتاحيّ، وعقل ولسان الكتلة الدستوريّة، وكاتب الرأي المساجل للرأي الآخر، أي جورج نقّاش في الـ "Orient".

لكنَّ المهمّ هو استنتاج القيَم الصحافيّة التي جسّدتها مسيرة شارل حلو. إنّه أوّل وآخر صحافيّ وصل إلى رأس الهرم السّياسيّ في السلطة عن طريق الصحافة، معاكساً ما كتبه في مذكّراته من أنّ الصحافة توصلك إلى أيّ مكانٍ شرط التخلّي عنها.

وهو أوّل وآخر رئيس للجمهوريّة يثابر على الكتابة الصحافيّة بعد تركِ الرئاسة.

وهو من القلائل في السياسة والصّحافة، كرّس مبدأ احترام الرأي الآخر. فجورج نقّاش الذي نازله حلو من موقع الندّ الصحافيّ والخصم السّياسيّ، صار في عهده وزيراً من دون أن يتردّد الرئيس في الاعتراف بمواهب نقّاش كأهمّ صحافيّ في عصره، وفق ما سمعته يقول.

وبقي أنّ الكلمة لدى شارل حلو لم تكن رصاصة أو سكيناً في يدهِ. ففي عزِّ سجاله مع العميد ريمون إدّه حول اتفاق القاهرة لم يتجاوز المألوف في الدفاع المهذّب إلى التقريع والتجريح... وفي ذروة القطيعة مع الشهابيّة وجهاز الشعبة الثانية، لم يجنح إلى الاتّهام والانقلاب على الودّ القديم. وكلّما أراد أن يردّ جميلاً لأحد، أو يعبّر عن تقديره لمرجعٍ أو مقام، لم يكن يجد أفضل من كلمة أو مقالٍ في جريدة، عربون تكريمٍ أو هديّة بتوقيع شارل حلو.

باطل الأباطيل... كلُّ شيء باطل بالنسبة إلى شارل حلو إلاّ الكلمة... ففي البدء كانت وآمن... وفي النهاية بقيت... وبقي منه هو كلمة، في الكتب التي ترك... وعبر الهاتف الصباحيّ اليوميّ للسؤال عن المتغيِّرات والأحوال، يتعجّب قليلاً ويقهقه كثيراً على المتهافتين على مركز أو موقعٍ أو غنيمةٍ، عرف سابقاً كم تكلِّف وكم تدوم...

قال ديغول لأندري مالرو عن نابوليون: لم يبقَ له وقت لروحه... أمّا شارل حلو، فكان عمل الروح هاجسه كلّ الوقت، فكان رجل قلب ورجل عقل، وأظنّه الآن يعرف كلّ وقت روحه.

وبعد، عن شارل حلو الصحافيّ، ألم تكن أكبرَ شهادة له وعنه اتهامه دائماً بأنّه حكم كصحافيّ يحلِّل، لا كرئيس يحسم؟

إضـــافة

المحامي منير الحاج خواطر وذكريات

من كلماته...


جامعة سيدة اللويز
فخامة الرئيس

خواطر وذكريات

تابعت بشوق الحلقة الدراسيّة التي أدارتها جامعة سيّدة اللويزة في الواحد والعشرين من كانون الأوّل ٢٠٠٢، حول الرئيس شارل حلو، بمناسبة ذكرى غيابه الأولى. ولقد وُفِّق محاضرو الحلقة بتظهير صورته كاملةً على ما فيها من ثراء وبهاء. فلست إذن هنا لأَزيد، بل لأؤكّد، عبر خواطر وذكريات رأيت فائدةً في تسجيلها، ملامحَ هذه الصورة، خشية أن تُطوى، حين نُطوى، فنفوِّت على التاريخ شهادة بفذٍّ، تحامل عليه بعض معاصريه، فترك أمره للتاريخ على أنّه الحريّ الوحيد بإنصافه.

هذه الخواطر والذكريات أسردها خطفاً، وبدون سابق، تاركاً للقارئ أن يستنطق بحريّة حروفها وما بين الحروف.

شارل حلو والكتائب

صدفة جمعت في مكاتب صحيفة الـ "لوجور" "Le Jour" التي كان يتولّى إدارة تحريرها، هذا الدستوريّ الفكر والهوى، بصحافيّ مارد آخر كتلويّ التوجّه والالتزام، كان يدير تحرير صحيفة ناطقة بالفرنسيّة، أخرى. أمّا الصحافيّ فكان جورج نقّاش، وأمّا الصحيفة فكانت "الأوريان"، "L'Orient".

مناسبةٌ كانت، لمعاينة واقع مرير كان قائماً، ناجماً عن الصراع الحادّ الذي قسم البلاد، بين كتلتين لا تفرّق بينهما أهداف، بل طموحات، لفرط ما استعرت، باتت خطراً على الأهداف. هذا في وقت كان المصير فيه مطروحاً والباب مفتوحاً على شتّى الاحتمالات، ومن بينها الخطو الجريء نحو الاستقلال. لكنّ ذلك كان يتطلّب حالةً وطنيّةً أخرى، وحدويّةَ الروح، متماسكةً، مجرّدةً عن الأهواء، نضاليّةَ المنهج.

وكان اتفاق على تشكيل هيئة مشتركة بين الطرفين، تتولّى تبريد الأجواء، وتدعو لتعبئة شبابيّة ديناميّة تحدّق بالهدف السامي، وتشيح عن الجانبيّات، وما تجرّ من مهاترات ومكاسرات، وتجيد لغة العطاء حتّى الفداء.

هكذا ولدت الكتائب. ولضمان حياديّتها، واستقامة نهجها وفاعليّتها، رأّسوا رياضيّاً عليها، غيرَ مُسيَّسٍ، يتمتّع بقامةِ وهامةِ القيادة، وعلوّ الجبين.

من جمعٍ إذاً، جاءت الكتائب، وليس من قسمة، ومن عزم على التضحية في سبيل لبنان.

هذه الكتائب، للرئيس شارل حلو يدٌ في ولادتها، ويدٌ في تحديد موحياتها الوطنيّة، التي ظلّ إلى آخر رمق مؤمناً بها، مناضلاً من أجلها.

إذا كان تحرُّرَ الرئيس حلو، فيما بعد، من نظاميّة الكتائب، قد أعفاه من مسؤوليّة عثراتها والكبوات، فإنّه لم يبطل كونه شريكاً كاملاً في انجازاتها والمآثر.

كان موريس الجميّل صارماً في تحديد مواصفات رجل الدولة: علم، خبرة، ثقافة، رؤيا، فكر، أدب، مران، وخيال.

سألته مرّة، ونحن نَتسارّ في الموضوع: "هل اجتمعت هذه المواصفات بأحد سواك، في لبنان؟" قال: "نعم، بالرئيس شارل حلو، مع الفارق بأنّها مُجلَّلة، عنده، بألقٍ أدبيٍّ رفيعٍ لا يسعني أن أدّعيَه". قلت: "ولكن، يقولون إنّه متردّد؛ وهذه هنة، في الرؤساء".

قال: "لا يمكن وصف التردّد على أنّه عيب في المطلق. التردّد محكومٌ توصيفه بأسبابه والدوافع، وقد يرتبط بفضائل، ويكون سمة إيجاب. فقد تتردّد لحكمةٍ، أو لسعة أفق تضع أمامك عديداً من الخيارات، تواكبها، بحكم المنطق، حيرةٌ في الاختيار. هذه الحيرة تتطلّب بدورها رَوْزاً صحيحاً ومسؤولاً لمعادلات وموازنات عديدة ومعقّدة، لا يجوز أن يتغفّلها مسؤول. ثمّ، من قال إنّ التردّد أو تأجيل القرار ليس قراراً. قد يتراءى للمسؤول أنّ القرارَ الصائب غيرُ متوفّرةٍ شروطُه، فيقرّرُ التحالفَ مع الوقت لتوفيرها".

واستطرد الشيخ موريس قائلاً: "كيف يمكن أن يُتَّهم بالتردّد، الرجل الذي استوعب بسهولةٍ مشاريعي، وقرّر دعمها ووضع كلّ إمكانات الدولة لتسهيل تنفيذها: لبنان جامعة الجامعات، "لبنان مدينة الله"، "لبنان نموذج إنماء"، هذي التي اعتبرها السياسيّون دليل جنون، أو على الأقلّ إفراطاً في الخيال.

بعدها، تذكّرت الشيخ موريس مرّتين:

مرّة عندما قرأت "زعماء" "Leaders"، للرئيس نيكسون، حيث يقول: "إذا كانت إدارة المؤسّسة الاقتصاديّة نوعاً من النثر، فإنّ إدارة شؤون الدولة نوع من الشعر... الحلم والخيال، هنا، واجبان، أكثر من أيّ مكان آخر".

ومرّة، عندما أجمع المحلّلون، أنّ هذا "المتردّد" أي الرئيس حلو، وبفعل النباهة الكامنة وراء تردّده، تمكّن من استئخار الانفجار الذي كان محدقاً، في السنة ١٩٦٩، إلى السنة ١٩٧٥. لقد راهن على الوقت، وليس الذنب ذنبه إذا لم يحالفه الوقت، أو إذا أساء استعماله من استلم الدفّة بعده. حسبه أنّه فسح في المجال لاحتمال تبدّل الظروف والمعطيات لصالح تفادي المحنة.

الرئيس حلو المسيحيّ

في آذار ١٩٨٢، رنّ هاتف منزلي، وإذا على الخطّ الرئيس حلو الذي بادرني، بعد سلام مقتضب، بالقول: "الأب زياده سائرٌ إليك، لبِّ طلبه ولا تخذله"، قلت: "وما هو طلبه يا فخامة الرئيس؟" قال: "أن تلقي عظة في كنيسة سيّدة الملائكة، بمناسبة أيّام الصوم، عن الصوم. لقد درج الأب زياده على عادة استدعاء علمانيين لاعتلاء منبر المناسبة، كلّ عام، وأنا قمت بواجبي مرّات، ورأيت أنّه بات من المناسب أن تسمع رعيّتُه جديداً، فأشرت إليك". قلت: "أظنّك تمزح، فخامة الرئيس. أنت تعرف أنّي غير متمرّس باللاهوت". قال: "لقد سمعتك تتكلّم من

على منبر الجامعة اللبنانيّة، في التربية، بمناسبة حفلة تخرُّج، فتأكّدت أنّك تملك الكافي من المعرفةِ بالمسيحيِّةِ، لإلقاء عظة ناجحة". قلت: "هناك، كنت أتكلّم على التربية،" قال: "ولكنّك أبرزت جميع القيم المحيطة بجوهر المسيحيّة". قلت: "تعني المحبّة". قال: "نعم المحبّة...". قلت: "تدعوني للكلام على الصوم، فأين علاقته بالمحبّة". قال: "ستكتشفها".

ولقد أضاء وجهه فرحاً وارتياحاً، عندما علم أنّ نبوءته تحقّقت. وخاصّة عند قراءته فقرات معيّنة من هذه العظة:

"المحبّة، كما قال السيّد، هي الشريعة، والأنبياء. العيش في دائرتها اكتفاء. كلّ ظاهرة تصطدم بالمحبّة ليست مسيحيّة".

"يقول باسكال: ليس هنالك جهنّم خاصّةٌ بالعقاب على الخطايا المقترفة ضدّ العدل، وأخرى على الخطايا المرتكبة ضدّ المحبّة". فالعدل الذي لا يستلهم المحبّة يبقى خطيئةً، وفي جهنمها يُدان..."

"الأهمُّ من الصوم، إنقاذُ جائعي العالم من صيامهم القسريّ..."

"الصيامُ كَكَفَّارةٍ فريسيٌّ الوجه والانتساب. الصيامُ الذي يتيحُ لعطاءٍ، وحدَه مسيحيٌّ... الصيامُ الغيريُّ الأبعاد، هذا هو الصيام الحقيقيّ في المسيحيّة..."

"واجباً ملحّاً، يكون العطاء، إذا جاء وفراً من امتناعٍ عن ترفٍ أو تنازلٍ عن فائضٍ، أو خيرٍ يذهبُ هدراً. لكنّه لا يبلغ ذروتَه الروحيّة إلاّ إذا جاء

من وفرِ الصيام عن الضروريِّ من الحاجات. هذه هي هويّةُ وأهميّةُ فِلسِ الأرملة الذي يتكلّم عليه الانجيل".

"العلمُ قصّر المسافات، ووسّعَ مساحة العناية بالغير، وفعّل قدرات الانتاج، فعزّز طاقات العطاء".

"أن تعرفَ، كما أن تَعدلَ، كما أن تُحبَّ، فرائضُ مترابطةٌ...".

من هنا،

لست أغالي إذا قلت، إنّ إدارة الرئيس حلو لمطاعم المحبّة، أدخلت في قلبه فرحاً لا يوصف، ولا يعدله قطٌّ فرحُ إدارته شؤونَ البلاد.

الثقافة الواسعة والذاكرة القوية، والطرفة الذكيّة

في مرحلةٍ شهدت حماساً منقطع النظير لشعارات ووعود برّاقة أطلقها أحد الساسة، وكان يبدو لكلٍّ ذي حجىً أنّ تنفيذها في غير المتناول، وفوق الوسائل المتاحة، وأنّ الاستمرار في السير فيها من دون تأمين شروطها والوسائل، سيؤدّي إلى كارثة، قادني التفكير بالظاهرة وخطورتها إلى تذكّر قولٍ والتوقّف عند أمر.

أما القول، فلشرشل: "مجرم القائد الذي يعلّل الشعب بآمال يعرف أنّها غير قابلة للتحقيق".

وأمّا الأمر، فهو، ظاهرة الانجراف، انجراف معظم الناس، القادرين منهم على التفكير وتبيُّن الحقيقة، وغير القادرين، والذين كنت أجدهم كلّهم مرتاحين مغتبطين في استسلامهم المطلق للدعوة السراب،

وجهلهم المطبق لما هو دائر. وفجأة تذكّرت الرئيس حلو، الذي كان يحلو له دائماً أن يتكلّم على الراحتين الأكيدتين: الموت واليأس. وتراءى لي، أنّ هنالك راحتين أخريين لا تقلّ عن الأوليين أهميّةً وتأثيراً: الجهل والرجاء. (عنيت الرجاء بمعنى تعلّل النفس بالآمال المستحيلة). أمسكت بسمّاعة الهاتف وكلّمت الرئيس قلت: "فخامة الرئيس لقد اكتشفت راحتين أخريين: "L'espérance et L'ignorance"، قال: أهنّئك لأنّك اكتشفتهما، لكن حذارِ أن تدّعيهما، لئلاّ تُرمى بالانتحال. كثيرون أداروا الكلام على هاتين الراحتين، (وذكر لي أسماءهم)، غير أنّ أوضحهم وأبلغهم بالطبع، كان فيكتور هيغو، الذي قال:

"Dieu a fait deux dons à l'homme: L'espérance et l'ignorance. L'ignorance est le meilleur des deux".

قلت: "ولماذا يعتبر هيغو الجهل النعمة الفضلى؟ قال: "لأنّه الأشدّ استقراراً، وبالتالي الأكثر أماناً، فهو ملجأ مُمنَّع ومحصّن. لا يهزّه أو يبدّل في حاله وعيٌ مُستأخرٌ محتملٌ، ولا خيبة أمل، كما في الرجاء".

هذه المحادثة – العجالة أهّلتني لإعداد محاضرة ناجحة عن الإحباط المسيحيّ ومسبّباته، ألقيتها في إقليم جبيل الكتائبيّ بُعيد ذلك بقليل.

وفي السياق نفسه، وذات يوم، وبعد مرور ثلاث سنوات على اتّفاق الطائف، الذي كان لي فيه نظرة مختلفة عن أكثريّة المحيط، وكنت أشكو من عدم استيعاب حتّى المنوّرين دفاعي المسند عن بعض إيجابيّاته الواضحة، بالرّغم من تكرار المحاولة مرّات، سألته لذلك

تفسيراً، فابتسم... . ولعلّه تذكّر أمره مع اتّفاق القاهرة. وقال: "ألا تعرف قصّة أنيس بك؟" قلت: "لا". قال: "أنيس بك طراد كان وجيهاً بيروتيّاً معروفاً وذا مكانة اجتماعيّة مرموقة، وثريّاً صاحب مصرف. لكنّه كان يشكو من غفلة، تميل به إلى الشرود الذهنيّ، وبالتّالي إلى عدم الاصغاء، سيّما متى كان المخاطِبُ عاديّاً في الناس.

وكان هنالك حوذيّ اسمه جريس، يتولّى نقله بعربته، كلّ صباح، من منزله الكائن في ساحة التباريس، إلى مصرفه الكائن في باب ادريس، ويعيدُه ظهراً.

وكان الحوذيّ مهذّباً، إذ ما أن يصعد البيك إلى العربة حتّى يبادره السلام: "صباح الخير يا بك". فيجيب البك: "أهلاً يا مخايل". فيعترض جرجس لافتاً: "ولكن يا بك أنا اسمي جريس وليس مخايل". فيردّ البك: "فهمت، فهمت، عاسلامتك يا مخايل".

وظلّت الحال على هذا المنوال، سنواتٍ، ما جعل الحوذيّ يضيق ذرعاً. وذات يوم، وفيما هما يتبادلان السلام الصباحيّ المعتاد، استدار جريس فجأة بحيث أصبح مع البك وجهاً لوجه، وقال بلهجة عالية محتجّة وغاضبة: "يا بك، اسمع، أمّي كانت عاقراً، فتعهّدت لمار جرجس نَذراً، بأنّها إذا ما رُزقت صبيّاً ستسمّيه "جريس"، وأنا جئت هكذا وليد نذر. وأمّي وَفَت هذا النذر إذ عمّدتني باسم جريس، وسجّلتني في دائرة النفوس باسم "جريس" ومذ ولّت وحتّى اليوم، إليك يدعوني "جريس": الأهل والأقارب والأصدقاء والمعارف. حتّى يوم

زواجي، الكاهن الذي قام بالرتبة سألني: "أتريد يا جريس حنّه زوجة لك؟"، ثمّ سأل حنّه: "يا حنّه أتريدين جريس زوجاً لك؟"، و...، وفيما يحاول أن يكمل، قاطعه البيك معلّقاً: "أوف، الله يساعدك، قصّتك قصّة يا مخايل...".

ورحنا نضحك معاً.

وبعد قليل، قال الرئيس: يا صديقي، للحوار المفيد شرطان، النيّة المسبقة بالاقتناع إذا ما توفّرت حجّته، والاصغاء الدقيق. كثيرون من الناس يقاربون الحوار، ليس بقصد معرفة الحقيقة، بل للدفاع عن وجهة نظرهم فقط. هؤلاء، الحوار يرسّخهم في قناعاتهم بديل أن يبدّل في هذه القناعات. ذلك أنّهم كلّما حشرتهم بحجّة أو أفحمتهم ببرهان، دفعتهم لاستنباط حجّة معاكسة أو برهان نقيض.

الرئيس المؤمن والشجاع

قبل سنوات أربع من وفاته، بلغني أنّ الرئيسُ نقل إلى المستشفى على عجل، إثر نوبة قلبيّة حادّة، وأنّ طبيبه خيّره بين إجراء عمليّةٍ حظُّ نجاحها لا يتجاوز العشرين في المائة، وبين المعالجة العاديّة التي من شأنها ألاّ تمدّ بحياته أكثر من ستة أشهر، وأنّه وبعد موازنة دقيقة، اعتمد الخيار الثاني، باعتبار أنّه كان بحاجةٍ إلى الأشهر الستة لانجاز مذكّراته.

ولمّا كان الوقت ضيقاً بالنسبة لحجم العمل الذي ينتظره، قرّر الاختصار في استقبال الزوّار، وقَصَرَهُ على المقرَّبين من الأصدقاء.

ولئلاّ أحرجه في الأمر، وخاصّة في تحديد مرتبة الصداقة التي تربط بيننا، اتّصلت بمرافقه وقلت له: "علمت أنّ الرئيس متوعّكٌ، وأنّه لا يستقبل أحداً. بلّغه أنّني اتّصلت وسألت عن صحّته، وأنّني أصلّي من أجله وأدعو له بالشفاء..."

وإذا بصوته ينساب عبر الهاتف: "بلى، أنت، أريدُ أن أراك". قلت: "ساعة تريد فخامة الرئيس"، قال: "يمكنك أن تأتي فورا". وجئت. وجدته بأحسن حال، منوّر الوجه، منشرح الأسارير، منكبّاً بشغف على الكتابة. قلت: "لا... ليس صحيحاً... لقد كذب المنجّمون...". قال: "وما همّ إن صدقوا..." أنا أحبّ الحياة، لكنّني لا أخاف الموت... لا تسجّلها في خانة الشجاعة بل في خانة الايمان". قلت: "لا بل في الخانتين معاً... نحن معتادون على تواضعك... لكنّني فخامة الرئيس، أؤكّد لك، وأنا أتأمّل وجهك، أنّك باقٍ معنا لسنوات". قال: "وعلام تستند؟"، قلت: "على كونك تحبّ الحياة، ولا تخاف الموت"...

من كلماته..

- جميل أن يرعى أهلُ الحكم والسياسة أهلَ الفن والابداع، ولكنّ الأجمل أن يصادق هؤلاء أولئك، بمحبّة واحترام واعجاب.
- عظيم أن تكونَ من أهل الوطنيّة أو من أهل الفكر، ولكنّ الأعظم هو أن تجمع الفكر والوطنيّة معاً.
- مهمّ أن تكون مثقّفاً أو أن تكون حرّاً، ولكنّ الأهمّ هو أن تجمع بين الاثنين، وما أجمل القلم والحريّة إن اجتمعا معاً.
- من كلمة في سعيد عقل:

هل نتبادل؟ خذ الفخامة، واعطني "كبير شعراء العصر"، وثقوا أنّي سأكون رابحاً.

- في الوجع لذّة العطاء، في القلق فرح الانتظار، في التعب مجد الانتصار على التحدّيات والمصاعب.
- الموت لا يخيفني، ولكنّني أخاف أن أفكّر به، لهذا ألجأ إلى الصلاة.
- الحريّة نظام حياة وطريقة عيش، ولهذا لا يمكن مصادرتها أو وضعها في السجن.

- نأمل أن تكون العولمة سبيلاً إلى حضارة انسانيّة، لا طريقاً إلى التحكّم بمصائر الشعوب وحقوق البشر.

- الحياة حلوة، في كلّ الأيّام والأعمار، إن امتلأت بالعمل والمحبّة والعطاء.

- الثقافة لا حدود لها ولا شهادات ولا امتحانات.

- نفسي تعبت من العمر، ولكنّها لم تتعب من حبّ الحياة.

- ماذا تفعل وأنت على عتبة التسعين؟
أصلّي... وأحلم.

المحتوى

صدر في السّلسلة

الياس أبو شبكة في خمسينيّته	١٩٩٧
أمين الريحاني في خمسينيّة قلب لبنان	١٩٩٨
كمال يوسف الحاج أبعادٌ منه.. وأبعدُ منها	١٩٩٨